المشتركات الإنسانية مدخل للتعايش في ضوء آيات النداءات العامة في القرآن الكريم

إعداد

د/ رضا إبراهيم الدسوقي إبراهيم حشيش

مدرس بقسم التربية الإسلامية

كلية التربية بتفهنا الأشراف جامعة الأزهر

المشتركات الإنسانية

مدخل للتعايش في ضوء آيات النداءات العامة في القرآن الكريم

د/ رضا إبراهيم الدسوقي إبراهيم حشيش
مدرس بقسم التربية الإسلامية
كلية التربية بتفهنا الأشراف جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني: Redahasheesh.٢٦١٩@azhar.edu.eg

مستخلص الدراسة:

استهدفت الدراسة الحالية تحديد المشتركات الإنسانية كما تعرضها آيات النداءات العامة في القرآن الكريم، وبيان الإطار المفاهيمي للتعايش من المنظور الإسلامي، وصياغة مدخل للتعايش في ضوء المشتركات الإنسانية المستنبطة من آيات النداءات العامة في القرآن الكريم، واستخدمت الدراسة في ذلك المنهجين الأصولي والوصفي، وتوصلت نتائجها إلى؛ أن للتعايش في المنظور الإسلامي أسسًا منها: الإنسان مخلوق مكرم، والاختلاف بين البشر سنة ربانية، وحرية الاعتقاد حق مكفول للإنسان، والحوار ضرورة بين البشر، والرفق واللين أساس في التعامل مع المخالف؛ وأن آيات النداءات العامة (محل الدراسة) قد تضمنت مشتركات إنسانية تمثلت في: المشترك العقدي، مكفولية الرزق، وحدة الخلق، عداوة الشيطان، الحاجة إلى الرسالات، الحاجة إلى التعارف، المساءلة الأخروية، وانتهت الدراسة بصياغة مدخل للتعايش في ضوء المشتركات الإنسانية المستنبطة من آيات النداءات العامة (محل الدراسة).

الكلمات المفتاحية: المشتركات الإنسانية، مدخل للتعايش، التعايش في المنظور الإسلامي، آيات النداءات العامة في القرآن الكريم.

Human commons

An introduction to coexistence in light of the verses on general appeals in the Holy Qur'an

Dr. Reda Ibrahim Al-Desouki Ibrahim Hashish
Teacher in the Islamic Education Department
Faculty of Education, Tafhana Al-Ashraf, Al-Azhar University

E-mail: Redahasheesh.٢٦١٩@azhar.edu.eg

Study abstract:

The current study targeted to identify the human commonalities as presented in the general appeals verses in the Holy Qur'an, clarify the conceptual framework for coexistence from the Islamic perspective, and formulate an approach to coexistence in light of the human commonalities deduced from the general appeals verses in the Holy Qur'an. The study used the fundamentalist and descriptive approaches, and its results were reached. to me; Coexistence in the Islamic perspective has foundations, including: man is an honorable creature, differences between humans are a divine law, freedom of belief is a right guaranteed to humans, dialogue is a necessity between humans, and gentleness and gentleness are a basis in dealing with those who disagree; The verses of general appeals (the subject of the study) included human commons, which were: the common belief, guaranteed livelihood, unity of creation, Satan's enmity, the need for messages, the need for acquaintance, and otherworldly accountability. The study ended by formulating an approach to coexistence in light of the human commons deduced from the verses. Public appeals (the subject of the study).

Keywords: Human commons, an introduction to coexistence, coexistence in the Islamic perspective, verses of general appeals in the Holy Qur'an.

المشتركات الإنسانية

مدخل للتعايش في ضوء آيات النداءات العامة في القرآن الكريم

مقدمة:

لقد خلق الله (ﷻ) الإنسان – على اختلاف شكله ولونه ولسانه – ليُعَمِّر الأرض بعبادته سبحانه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (سورة الذاريات)، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾(سورة هود)، ولن يتمكن الإنسان من تحقيق هذا الهدف الرباني الأسمى ما لم يتعايش مع بني جنسه وفق منهج الله (ﷻ)، في إطار من التكامل والتناغم والتعاون الذي يحفظ للجميع حقه، ويمكنه من استثماره فيما يفيد نفسَه ومجتمعَه وأمتَه، بل والعالمَ كله.

ويمثل العالم بحضاراته المختلفة، وتنوعاته الهائلة، وأعراقه وأجناسه، وأفكاره ولغاته، منظومة رائعة متكاملة، تعطي ثراءً لا نهاية له، وروعةً لا حد لها، ولوكان البشر كلهم على شاكلة واحدة لعانى الناس من السآمة والملل، والكآبة والإحباط، وإذا تدبرنا في الأمر حق التدبر، وأمعنا النظر بعمق في أحوال الشعوب والحضارات لوجدنا أننا كبشر متفقون في ما لا يمكن أن نحصيَه من أمور، ومشتركون في ما لا يمكن حصره من مشتركات (السرجاني: ٢٠١١م، ص٨).

ولا تتأكد حاجة البشر إلى بعضهم – فقط – بحكم ما بينهم من مشتركات، بل إن قوام الحياة الحقيقية للإنسان هو التعاون المبني على التكافؤ والاعتراف بحق الجميع؛ ذلك لأن الواحد من البشر لا تقاوم قدرتُه قدرةَ واحدٍ من الحيوانات العجم سيما المفترسة؛ فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرته أيضًا باستعمال الآلات المعدَّة لها، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته؛ لما ركَّبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضًا دفاع عن نفسه؛ لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات، ويعاجله الهلاك على مدى حياته، ويَبطُل نوعُ البشر، وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء، والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقائه

وحفظ نوعه؛ فإذًا هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم (ابن خلدون: ٢٠٠٤م، ص١٣٨).

وعلى الجانب الآخر – وهو جانب الاختلاف الظاهر فيما بين البشر – فإن النظر بعين الإنصاف يثبت بوضوح أن الاختلاف في حقيقته هو العامل الذي يدفع باتجاه التعارف واللقاء والتعاون؛ ومن ثم السعي نحو التكامل بين هذه الاختلافات، فلو كان كل الناس متشابهين لا خلاف بينهم، فلن يكون ثمة دافع لكي يتعارفوا أو يتعاونوا أو يتكاملوا؛ إذ سيقوم التشابه والتطابق حائلًا دون وجود الداعي والدافع إلى التعارف (السرجاني: ٢٠١١م، ص٧٦٠)؛ وهذا ما أشار إليه قول الله (ﷻ):﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (سورة الحجرات).

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

في إطار ما سبق، ولأن هذا هو شأن الاختلاف، ومكان التعددية، ومقام التنوع في الرؤية الإسلامية، كان القرآن الكريم هو المصدر الأول لالتماس موقف الإسلام من التعددية والاختلاف، والتي تمثل مبدأ إسلاميًا، أخبرنا القرآن الكريم أنه (جَعْلٌ إلهي)، وسنةٌ (أزلية – أبدية) قد فطر الله تعالى عليها جميع المخلوقات، فلم ولن يكون الناس نمطًا واحدًا، أو قالبًا فردًا، وإنما كانوا ولا يزالون مختلفين (عمارة: ٢٠٠٨م، ص٢٣)، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ... ١١٩﴾ (سورة هود).

وإذا كان هذا هو الحال المأمول لحياة البشر وفق مراد الله (ﷻ) الذي خلقهم، وهو الأعلم بما ينفعهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ (سورة الملك)، فلماذا نرى الشقاق والنزاع والصراعات والحروب، ليس فقط على مستوى الأفراد والمجتمعات، بل على مستوى الدول والأقاليم، تلك الصراعات التي لا يقف تأثيرها عند حدود أطرافها، بل يتجاوزها شاء الجميع أم أبى إلى العالم كله، فهل أخطأ الجميعُ الطريق، أم حادوا عنه – بعد وضوح معالمه – بجهل أو هوى؟!

ومن هنا كان لزامًا على الجميع أن يُدلي بدلوه، كلٌ في مكانه؛ لتلمُّس الطريق الحق للتآلف والتعايش والتعاون بين بني البشر، ولا طريق آمنَ ولا أوثقَ ولا أهدى من الطريق الذي

رسمه الله (ﷻ) لخلقه، ومن هنا جاءت مشكلة الدراسة، والتي يمكن صياغتها في السؤال الرئيس التالي:

ما المشتركات الإنسانية العامة الداعية إلى التعايش المتوازن بين البشر في ضوء القرآن الكريم؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

١- ما المشتركات الإنسانية في ضوء آيات النداءات العامة في القرآن الكريم؟

٢- ما الإطار المفاهيمي للتعايش من المنظور الإسلامي؟

٣- كيف يمكن للمشتركات الإنسانية المستنبطة من آيات النداءات العامة في القرآن الكريم أن تكون مدخلًا للتعايش بين البشر؟

أهداف الدراسة:

تستهدف الدراسة الحالية ما يلي:

١- تحديد المشتركات الإنسانية كما تعرضها آيات النداءات العامة في القرآن الكريم.

٢- بيان الإطار المفاهيمي للتعايش من المنظور الإسلامي.

٣- صياغة مدخل للتعايش في ضوء المشتركات الإنسانية المستنبطة من آيات النداءات العامة في القرآن الكريم.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة فيما يلي:

- تؤطر للتعايش السلمي وفق المصدر الأساس للإسلام؛ وهو القرآن الكريم.
- تعد إسهامًا تربويًا من المنظور الإسلامي في التعامل المنضبط مع حالات الخلافات والصراعات بين الأفراد والمجتمعات.
- تسهم عمليًا بصياغة مدخل للتعايش المتوازن بين الأفراد في ضوء آيات النداءات العامة في القرآن الكريم.

- قد تفيد المتعلمين في المراحل المختلفة في وضع أسس عامة للحوار البنَّاء البعيدِ عن أي تعصب للون أو عرق أو دين.
- قد يستفيد منها القائمون على العملية التعليمية والتربوية في صياغة الرؤى والأفكار المؤسِّسة لأهداف المقررات الدراسية، المراعية لطبيعة فئات المجتمع المختلفة.
- قد تستفيد منها مؤسسات المجتمع المختلفة في طرح وتناول القضايا العامة؛ باستثمار ربطها بالمشتركات الإنسانية؛ تهيئةً لقبولها وتعاملِ أفراد المجتمع المنضبطِ معها.
- تعد استجابةً لما تنادي به توصيات المؤتمرات العلمية والاجتماعات الدولية والإقليمية المعنية بالتعامل مع الصراعات والخلافات بين بني البشر؛ للوقوف على أسبابها؛ لتلافيها، وتحصين العالم من مخاطرها، وبيان الرؤية الإسلامية الحقيقية في ذلك.

حدود الدراسة:

تقتصر الدراسة على المشتركات الإنسانية كما تعرضها آيات النداءات العامة في القرآن الكريم، وصياغة مدخل تربوي للتعايش الإنساني في ضوئها.

منهج الدراسة:

في ضوء طبيعة الدراسة وخطوات السير فيها تستخدم المنهجين؛ **الأصولي:** الذي يعنى بالاستفادة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وما تتضمنه الشريعة من أحكام وتشريعات وتوجيهات تربوية ونفسية (الشيخ: ٢٠١٣م، ص٢٣)؛ بهدف الوقوف على المشتركات الإنسانية في إطار آيات النداءات العامة في القرآن الكريم، والتأصيل لمفهوم التعايش من المنظور الإسلامي؛ **والوصفي:** الذي يهدف إلى جمع الحقائق والبيانات عن ظاهرة أو موقف معين يغلب عليه صفة عدم التحديد ودراسة الحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة الظاهرة، أو الموقف أو مجموعة من الأحداث والأوضاع، مع محاولة تفسير هذه الحقائق تفسيرًا كافيًا (عبد الحميد وخيري: ١٩٩٦م، ص١٣٦)؛ للوقوف على الإطار العام لمفهومي المشتركات الإنسانية، والتعايش، وفي صياغة مدخل التعايش محل الدراسة.

مصطلحات الدراسة:

تتناول الدراسة الحالية المصطلحات التالية:

(١) المشتركات الإنسانية:

تعرف الدراسة الحالية المشتركات الإنسانية إجرائيًا بأنها: القواسم العامة المشتركة بين بني الإنسان، متجاوزة حدود الأعراق والأجناس والألوان، والتي تُستنبط من آيات النداءات العامة في القرآن الكريم.

(٢) التعايش:

تعرف الدراسة الحالية التعايش إجرائيًا بأنه: التوافق بين الأفراد والمجتمعات على العيش المشترك فيما بينهم، بنظام معين يحفظ للجميع حقوقهم مؤداةً، ويُلزمهم في الوقت نفسه بواجبات تحفظ حقوقَ الآخرين، في إطار من الاحترام الأخلاقي المتبادل، القائم على الاعتراف بالخصوصية الحضارية للأمم والشعوب، وبما لا يتعارض مع القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة.

(٣) آيات النداءات العامة في القرآن الكريم:

تعرف الدراسة الحالية آيات النداءات العامة في القرآن الكريم إجرائيًا بأنها: الآيات القرآنية التي تخاطب مجموع البشر بأسلوب النداء العام، بصيغتي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، والتي تتضمن توجيهات أو تحذيرات، بأسلوب مباشر أو غير مباشر، ويمكن من خلالها استنباط بعض المشتركات الإنسانية العامة التي تقوم الدراسة عليها.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات التي تناولت متغيرات الدراسة الحالية، واختلفت منهجيتها تبعًا لأهدافها والقضايا التي تتناولها، ويمكن عرض الدراسات السابقة وثيقة الصلة بالدراسة الحالية فيما يلي:

(١) دراسة: (سماهر الأسطل، ومحمود أبو دف: ٢٠٠٧):

استهدفت هذه الدراسة الكشف عن القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين، ووضع تصور مقترح لتوظيف هذه القيم في التعليم المدرسي، وفي مواجهة التحديات

التي تواجه الأمة الإسلامية، واستخدمت الدراسة في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، بأسلوب تحليل المحتوى، وتوصلت الدراسة إلى نتائج كان من أهمها: أن آيات النداء القرآني للمؤمنين تزخر بالقيم الإيمانية، كقيمة التقوى، وقول الحق؛ وبالقيم الأخلاقية، كالإحسان، ومصاحبة الصادقين؛ وبالقيم الاجتماعية، كالتيسير على الناس، والابتعاد عن الغلو؛ وبالقيم السياسية والعسكرية، كالجهاد في سبيل الله، وقتال الكفار بشدة؛ وبالقيم الاقتصادية، كالإنفاق في سبيل الله، وعدم لتعامل بالربا، كما توصلت الدراسة إلى صيغة تربوية علاجية للاستفادة من القيم التربوية المستنبطة من آيات النداء القرآني للمؤمنين في مجال التعليم المدرسي، وفي مواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، وخرجت الدراسة بالعديد من التوصيات التي كان من أهمها: أن تقوم المؤسسات الاجتماعية بدورها في مواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، وأن تتعاون من أجل نشر القيم التربوية الإسلامية وترسيخها لدى المسلمين، من خلال وسائل الإعلام والمسجد والفضائيات.

(٢) دراسة: (راشد المحيشير: ١٤٣٤هـ):

استهدفت هذه الدراسة بيان أهمية النداء الإلهي في الدعوة إلى الله، والتعرف على موضوعات الدعوة إلى الله في آيات النداء الإلهي الموجه للناس في السور المكية، وإيضاح الدلالات الدعوية لهذه الآيات، سواء منها ما يتعلق بالداعي أو المدعو أو الوسائل والأساليب المستخدمة في الدعوة، واستخدمت الدراسة في ذلك المنهجين: الاستقرائي والاستنباطي، وكان من أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج: أن آيات النداء الإلهي الموجه للناس في السور المكية قد حفلت بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، وأنها تضمنت الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة وحذرت من الأخلاق الذميمة، وأن من فقه الداعي إلى الله أن يعرف أصناف المدعوين، ويستخدم الأساليب المناسبة لكل منهم.

(٣) دراسة: (عبد الله السهلي: ٢٠١٢م):

استهدفت هذه الدراسة الوقوف على آيات نداء الناس في القرآن الكريم، ودراستها عقديًا؛ بتحليل موضوعاتها، وبيان معالمها ودلالاتها، واستخدمت في ذلك المنهج التحليلي، وتوصلت الدراسة إلى أن موضوعات آيات نداء الناس في القرآن الكريم قد شملت القضايا العقدية الكبرى، مثل: مصادر تلقي الدين، والتوحيد، وخاصة توحيد العبادة، والتذكير باليوم الآخر، وغيرها، وأن

هذه النداءات جاءت مدعَّمة بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول، وكانت صريحة وفي غاية الاختصار والبيان، ومتضمنة الترغيب والترهيب، كما كان فيها تلطف بالمنادين؛ فهي نداءات رحمة وشفقة وإرشاد إلى ما فيه نفعهم، وقدمت الجن على الإنس في النداء لأن استجابة الإنس أفضل من استجابة الجن.

(٤) دراسة: (إسماعيل عبد الله: ٢٠١٩م):

استهدفت هذه الدراسة إبراز دور أصول الفقه في الحياة الإنسانية، والمساهمة في عرض أحكام الشريعة الإسلامية عرضًا يثبت عظمتها وسُمُوَّها، وقدرتها على تحقيق مصالح الناس في كل دروب الحياة، والكشف عما أضافه الفقه الإسلامي إلى الفكر الإنساني بصفة عامة، وخاصة ما يتعلق بقضية المشتركات الإنسانية، واستخدمت الدراسة في ذلك المنهجين: الوصفي والتحليلي، وكان من أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج: أن فقه المشترك الإنساني هو اجتهاد فقهي معاصر، وهو ضرورة ماسة هذه الأيام، وأنه لا سبيل أمام البشرية سوى الالتقاء على قيم عالمية مشتركة، وأن من أهم خصائص فقه المشترك الإنساني الحوار مع الآخرين للتعاون فيما بينهم من مشتركات وتعظيمها، وقبول بعضنا البعض في نواحي الاختلاف، وأن فقه المشترك الإنساني –على حداثته– فهو مبثوث في كتب التراث الإسلامي، في شتى أبواب الفقه الإسلامي، وعند كل المذاهب الإسلامية، وأن من النماذج العظيمة التي اعتمدنا عليها في استنباط فقه المشترك الإنساني، هي إعمال المصلحة في قضايا فقهية يعود أثرها بالنفع على عامة الناس، وأن فقهاء الحنفية قد استخدموا لفظة "المشترك العام"، والذي مهد كثيرًا لمصطلح المشترك الإنساني، ومن هذه النماذج التطبيقية اجتهاد أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه– في تقسيم سواد العراق، ومسألة وقف الإرصاد في الفقه الإسلامي.

(٥) دراسة: (صالح الغامدي: ٢٠١٩م):

استهدفت هذه الدراسة التعرف على أهمية أسلوب النداء في الدعوة إلى الله تعالى، وبيان آيات النداء الموجهة للنبي محمد (ﷺ) في القرآن الكريم، والوقوف على الموضوعات الدعوية المتعلقة بالعقيدة والأخلاق والعبادات في هذه الآيات، واستخدمت الدراسة في ذلك المناهج: الاستقرائي، والاستنباطي، والكمي، وتوصلت الدراسة إلى أن المعاني التي تضمنها نداؤه (ﷺ) تجتمع في أمور عدة أهمها: إبلاغ الرسالة وما يتعلق بها، الحث على الجهاد في

سبيل الله وما يتصل به، الأمر بتقوى الله (ﷻ)، بيان بعض الأحكام المتعلقة بالنساء، سواء كان خاصًا به مع أهله، أم يشترك معه فيه أفراد أمته، والحث على خلق الزهد في الدنيا، وخلق الإحسان إلى الأهل، والمعاملة بالمعروف.

(٦) دراسة: (إيمان محمد: ٢٠٢١م):

استهدفت هذه الدراسة الوقوف على أسس وضوابط المشترك الإنساني بين المسلمين وغيرهم عند الطاهر بن عاشور من خلال كتابه (التحرير والتنوير)، واعتمدت الدراسة في تناول هذا الموضوع على المنهج الاستقرائي، وكان من أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج: أن كثيرًا من المفاهيم المتداولة في الخطاب الثقافي العالمي لا زالت لم تأخذ حقها من النظر والبحث والتأصيل والمراجعة في الخطاب الإسلامي، خاصة تلك المفاهيم والمعاني ذات الجذور العميقة والمتأصلة في نصوص الوحي؛ ولعل منها مفهوم المشترك الإنساني، وأن البحث في المشتركات الإنسانية يقع في دائرة خصائص رسالة الإسلام لأنها رسالة عالمية، للبشرية جمعاء، لأصل نوع الإنسان ذلك المخلوق الذي اختصه الله بالإنعام والتفضيل والتكريم، وأن كثيرًا من نصوص الوحيين اشتملت على أصول ومعان ومبادئ تنتهي إلى تقرير وتأكيد تلك المساحات المشتركة والمتجذرة في أصل النوع الإنساني، والتي لا يختلف عليها أحد، وأن الاشتراك قدرٌ كوني وسنّة من سنن الحياة له مصادره وعوامله التي خُلقت وأُسست البشرية عليها، أو تطوّر التاريخ البشري من خلالها، وأن مبنى مقاصد الشريعة على وصفها الأعظم، وهو الفطرة التي هي أساس الاشتراك بين بني الإنسان.

(٧) دراسة: (محمد عطية: ٢٠٢٢م):

استهدفت هذه الدراسة بيان أهمية التسامح والتعايش الديني في الحفاظ على وحدة المجتمعات في جنوب شرق آسيا، مع توضيح إشكاليات وتحديات تواجه التعايش في دولتي إندونيسيا وسنغافورة وطرق حلها عن طريق آليات دستورية وقانونية ومجتمعية، وكيف نجحت الدولتان في استغلال التعددية العرقية والدينية لتحقيق الاستقرار السياسي والتنمية من جهة، والوئام والتسامح الديني من جهة أخرى، واستخدمت الدراسة في ذلك المنهج التاريخي الوصفي والمنهج التحليلي، وكان من أهم نتائجها: أن التعددية الدينية والعرقية عامل قوة، يمكن الاستفادة منه لتحقيق الوحدة الوطنية والاستقرار السياسي والتنمية، وأن التعصب والتمييز والكراهية تقوض

التعايش بين المكونات الاجتماعية والثقافية والدينية، وأن المشاركة المجتمعية والسياسية كانت هي القاعدة الذهبية لتفعيل التعددية في إندونيسيا وسنغافورة، وهي المحرك العام لإعطاء كل تنوع حالته الثرية وزخمه الإنساني، وبالتالي لا يمكن إقصاء أي عنصر من عناصر المجتمع طالما يسهم بالقدر نفسه الذي يسهم فيه أي عنصر آخر.

تعقيب على الدراسات السابقة:

باستعراض الدراسات السابقة أمكن استخلاص ما يلي:

- **بالنسبة للهدف:**

تمايزت الدراسات السابقة في أهدافها على النحو التالي:

- استهدفت دراسة (الأسطل، وأبي دف: ٢٠٠٧م) وضع تصور مقترح لتوظيف القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين في التعليم المدرسي، وفي مواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، واستهدفت دراسة (المحيشير: ١٤٣٤هـ) التعرف على موضوعات الدعوة إلى الله في آيات النداء الإلهي الموجه للناس في السور المكية، وإيضاح الدلالات الدعوية لهذه الآيات، في حين استهدفت دراسة (السهلي: ٢٠١٢م) الوقوف على آيات نداء الناس في القرآن الكريم، ودراستها عقديًا؛ بتحليل موضوعاتها، وبيان معالمها ودلالاتها، واستهدفت دراسة (الغامدي: ٢٠١٩م) بيان آيات النداء الموجهة للنبي محمد (ﷺ) في القرآن الكريم، والوقوف على الموضوعات الدعوية المتعلقة بالعقيدة والأخلاق والعبادات في هذه الآيات، واستهدفت دراسة (عبد الله: ٢٠١٩م) الكشف عما أضافه الفقه الإسلامي إلى الفكر الإنساني بصفة عامة، وخاصة ما يتعلق بقضية المشتركات الإنسانية، واستهدفت دراسة (إيمان محمد:٢٠٢١م) الوقوف على أسس وضوابط المشترك الإنساني بين المسلمين وغيرهم عند الطاهر بن عاشور من خلال كتابه (التحرير والتنوير)، بينما استهدفت دراسة (عطية: ٢٠٢٢م) بيان أهمية التسامح والتعايش الديني في الحفاظ على وحدة المجتمعات في جنوب شرق آسيا، مع توضيح إشكاليات وتحديات تواجه التعايش في دولتي إندونيسيا وسنغافورة وطرق حلها.

- بينما استهدفت الدراسة الحالية تحديد المشتركات الإنسانية التي تعرضها آيات النداءات العامة في القرآن الكريم، وصياغة مدخل للتعايش في ضوء هذه المشتركات الإنسانية المستنبطة.

- **بالنسبة للمنهج:**

تباينت الدراسات السابقة في منهجها على النحو التالي:

- استخدمت دراسة (الأسطل، وأبي دف: ٢٠٠٧م) المنهج الوصفي التحليلي، بأسلوب تحليل المحتوى، واستخدمت دراسة (المحيشير: ١٤٣٤هـ) المنهجين الاستقرائي والاستنباطي، واستخدمت دراسة (السهلي: ٢٠١٢م) المنهج التحليلي، واستخدمت دراسة (الغامدي: ٢٠١٩م) المناهج: الاستقرائي والاستنباطي والكمي، واستخدمت دراسة (عبد الله: ٢٠١٩م) المنهجين: الوصفي والتحليلي، واستخدمت دراسة (إيمان محمد:٢٠٢١م) المنهج الاستقرائي، في حين استخدمت دراسة (عطية: ٢٠٢٢م) المنهجين: التاريخي الوصفي والتحليلي.
- بينما استخدمت الدراسة الحالية المنهجين: الأصولي والوصفي.

- **بالنسبة للنتائج:**

تمايزت الدراسات السابقة في نتائجها على النحو التالي:

- توصلت دراسة (الأسطل، وأبي دف: ٢٠٠٧م) إلى صيغة تربوية علاجية للاستفادة من القيم التربوية المستنبطة من آيات النداء القرآني للمؤمنين في مجال التعليم المدرسي، وفي مواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية، وتوصلت دراسة (المحيشير: ١٤٣٤هـ) إلى أن آيات النداء الإلهي الموجه للناس في السور المكية قد حفلت بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، وأنها تضمنت الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة وحذرت من الأخلاق الذميمة، وأن من فقه الداعي إلى الله أن يعرف أصناف المدعوين، ويستخدم الأساليب المناسبة لكل منهم، وتوصلت دراسة (السهلي: ٢٠١٢م) إلى أن موضوعات آيات نداء الناس في القرآن الكريم قد شملت القضايا العقدية الكبرى، مثل: مصادر تلقي الدين، والتوحيد، وخاصة توحيد

العبادة، والتذكير باليوم الآخر، وغيرها، وأن هذه النداءات جاءت مدعمة بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر والعقول، وكانت صريحة وفي غاية الاختصار والبيان، وتوصلت دراسة (الغامدي: ٢٠١٩م) إلى أن المعاني التي تضمنها نداؤه (ﷺ) تجتمع في أمور عدة أهمها: إبلاغ الرسالة وما يتعلق بها، الحث على الجهاد في سبيل الله وما يتصل به، الأمر بتقوى الله (ﷻ)، بيان بعض الأحكام المتعلقة بالنساء، والحث على خلق الزهد في الدنيا، وخلق الإحسان إلى الأهل، والمعاملة بالمعروف، وتوصلت دراسة (عبد الله: ٢٠١٩م): أن فقه المشترك الإنساني هو اجتهاد فقهي معاصر، وهو ضرورة ماسة هذه الأيام، وأنه لا سبيل أمام البشرية سوى الالتقاء على قيم عالمية مشتركة، وأن من أهم خصائص فقه المشترك الإنساني الحوار مع الآخرين للتعاون فيما بينهم من مشتركات وتعظيمها، وقبول بعضنا البعض في نواحي الاختلاف، وأن فقه المشترك الإنساني –على حداثته– فهو مبثوث في كتب التراث الإسلامي، في شتى أبواب الفقه الإسلامي، وعند كل المذاهب الإسلامية، وتوصلت دراسة (إيمان محمد:٢٠٢١م) إلى أن البحث في المشتركات الإنسانية يقع في دائرة خصائص رسالة الإسلام، وأن الاشتراك قدرٌ كوني وسنّة من سنن الحياة له مصادره وعوامله التي خُلقت وأُسست البشرية عليها، وأن مبنى مقاصد الشريعة على وصفها الأعظم، وهو الفطرة التي هي أساس الاشتراك بين بني الإنسان، في حين توصلت دراسة (عطية: ٢٠٢٢م) إلى أن التعددية الدينية والعرقية عامل قوة، يمكن الاستفادة منه لتحقيق الوحدة الوطنية والاستقرار السياسي والتنمية، وأن التعصب والتمييز والكراهية تقوض التعايش بين المكونات الاجتماعية والثقافية والدينية، وأن المشاركة المجتمعية والسياسية كانت هي القاعدة الذهبية لتفعيل التعددية في إندونيسيا وسنغافورة.

- بينما توصلت الدراسة الحالية إلى أن للتعايش في المنظور الإسلامي أسسًا منها أن: الإنسان مخلوق مكرم، والاختلاف بين البشر سنة ربانية، وحرية الاعتقاد حق مكفول للإنسان، والحوار ضرورة بين البشر، والرفق واللين أساس في التعامل مع المخالف؛ وأن آيات النداءات العامة (محل الدراسة) قد تضمنت مشتركات إنسانية تمثلت في: المشترك

العقدي، مكفولية الرزق، وحدة الخلق، العداوة الشيطانية، الحاجة إلى الرسالات، الحاجة إلى التعارف، المساءلة الأخروية، وانتهت الدراسة بصياغة مدخل للتعايش في ضوء المشتركات الإنسانية المستنبطة من آيات النداءات العامة (محل الدراسة).

- **أوجه الاستفادة:**

بعد التعقيب والتحليل السابق للدراسات السابقة يمكن للباحث عرض أوجه الاستفادة من تلك الدراسات السابقة فيما يلي:

- دعَّمت الدراسةُ الحالية قضيتَها البحثية ورسمت طريقَها المتمايزَ عن غيرها من الدراسات.
- أثْرت إطارَها النظري فيما يتعلق بالإطار المفاهيمي للمشتركات الإنسانية والتعايش من منظور إسلامي.
- تزوَّدت بالعديد من المراجع ذات الصلة بموضوع الدراسة الحالية.

الإطار النظري:

تتعرض الدراسة الحالية في إطارها النظري إلى أربعة محاور؛ الأول: آيات النداءات العامة في القرآن الكريم؛ من حيث حصرها، وتصنيفها، والثاني: التعايش من المنظور الإسلامي، والثالث: المشتركات الإنسانية في ضوء الآيات القرآنية محل الدراسة، والرابع: المدخل المقترح للتعايش في ضوء ما تضمنته الآيات محل الدراسة من مشتركات، وذلك فيما يلي:

المحور الأول: آيات النداءات العامة في القرآن الكريم:

تتمثل آيات النداءات العامة في القرآن الكريم كما تراها الدراسة الحالية في الآيات القرآنية التي تخاطب مجموع البشر بأسلوب النداء العام، بصيغتي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، والتي تتضمن توجيهات أو تحذيرات، بأسلوب مباشر أو غير مباشر، ويمكن من خلالها استنباط بعض المشتركات الإنسانية العامة التي تقوم الدراسة عليها.

وجاءت آيات النداءات العامة بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ متفرقة في سور القرآن الكريم، في عشرين موضعًا؛ فجاءت في موضعين في سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ

رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾؛ وفي ثلاثة مواضع في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾؛ وفي موضع واحد في سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾؛ وفي أربعة مواضع في سورة يونس، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾؛ وفي أربعة مواضع في سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠

لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾، وفي موضع واحد في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾؛ وفي موضع واحد في سورة لقمان، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾؛ وفي ثلاثة مواضع في سورة فاطر، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾؛ وفي موضع واحد في سورة الحجرات، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

بينما جاءت آيات النداءات العامة بصيغة ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، في خمسة مواضع متفرقة في سور القرآن الكريم؛ فجاءت في أربعة مواضع في سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾؛ وجاءت في موضع واحد في سورة يس، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

وباستقراء الآيات السابقة يتبين أن آيات النداء بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جاءت في عشرين موضعًا؛ في تسعِ سور، أربعٍ منها مدنية؛ وهي سور: البقرة (موضعين)، والنساء (ثلاثة مواضع)، والحج (أربعة مواضع)، والحجرات (موضع واحد)، وخمسٍ مكية؛ وهي سور: الأعراف (موضع واحد)، ويونس (أربعة مواضع)، والنمل (موضع واحد)، ولقمان (موضع واحد)، وفاطر (ثلاثة مواضع)، بينما جاءت آيات النداء بصيغة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ في خمسة مواضع، وذلك في سورتين مدنيتين؛ الأعراف (أربعة مواضع)، ويس (موضع واحد).

وبتدقيق النظر في مكان نزول هذه الآيات يتبين أن آيات النداء بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جاءت في عشرين موضعًا؛ بواقع عشرة مواضع مكية، وعشرة مواضع مدنية؛ فتساوت أعداد النداءات المكية والمدنية بهذه الصيغة، ولعل في هذه المساواة دفعًا لإيهام أن صيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ رُغم عموميتها تخاطب من نزلت فيهم فقط، ومع أن هذا مردود عليه بأن العبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب، إلا أن المساواة في عدد النداءات المكية والمدنية بهذه الصيغة جاءت مؤكدة على أن هذا النداء يخاطب جميع الناس على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ومعتقداتهم؛ كما يتبين أن صيغة النداء الأخرى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قد جاءت في خمسة مواضع، في سورتين مدنيتين؛ فجاء تأخير نزولها متوافقًا مع طبيعة النداء الذي لا يحتمل لبسًا بأن المخاطب به جميع البشر – فالبشر كلهم لآدم – ؛ وهو ما يُلمح منه في النهاية أن الآيات الكريمة قد راعت بشكل أو بآخر ما بين بني البشر من قواسم إنسانية مشتركة.

المحور الثاني: التعايش من المنظور الإسلامي:

مفهوم التعايش:

التعايش في اللغة مأخوذ من مادة: عَيَشَ، يقال: عاش عَيشًا وعِيشةً ومَعاشًا: صار ذا حياةٍ، فهو عائِشٌ، وعايَشَهُ: عاشَ معه، وتعايَشوا: عاشوا على الألفة والمودةِ، ومنه التعايشُ السلمي (أنيس وآخرون: ٢٠٠٤م، ص٦٣٩)، وهو: عيش مشترك بين أقوام يختلفون مذهبًا، أو دينًا، أو بين دول ذات مبادئ مختلفة (عمر: ٢٠٠٨م، ص١٥٨٣)، وفي الاصطلاح: هو العيش المتبادل القائم على المسالمة والأمان، والمهادنة والاطمئنان، وقبول الآخر بكل مكوناته ومعتقداته، ومنحه حقوقه والحفاظ على كرامته (بو خبرة: ٢٠١٨م، ص٢١٠)، وهو تعلم العيش

المشترك والقبول بالتنوع، بما يضمن وجود علاقة إيجابية مع الآخر بضوابط الشرع، دون ترك فسحة ليؤثر طرف ما على ثقافة المسلم الصحيحة، وذلك من منطلق قول الله تعالى: ﴿...وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ (سورة النساء) (بوربعين ومعمر: ٢٠١٦م، ص٨١).

وهو: التوافق بين الأفراد والمجتمعات على العيش المشترك فيما بينهم، بنظام معين يحفظ للجميع حقوقهم مؤداةً، ويُلزمهم في الوقت نفسه بواجبات تحفظ حقوقَ الآخرين، في إطار من الاحترام الأخلاقي المتبادل، القائم على الاعتراف بالخصوصية الحضارية للأمم والشعوب، وبما لا يتعارض مع القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة.

أهمية التعايش للفرد والمجتمع:

إذا كان الإنسان مخلوقًا لعمارة الأرض وفق منهج الله تعالى، فإنه لا سبيل لتحقيق هذا الهدف إلا من خلال تناغم الإنسان مع بني جنسه، ومعاونة كلٍ منهم الآخر في ذلك، ومن هنا تظهر أهمية التعايش في حياة الأفراد والمجتمعات؛ إذ به يحصل التعاون، وتتحقق المنافع، وعن طريقه تؤسس قواعد الأمن والاستقرار (بو خبرة: ٢٠١٨م، ص٢١٠)، وتظهر هذه الأهمية بوضوح حين نعلم أن الإسلام إنما يهدف إلى التعايش والسلم والأمن الاجتماعي، وأن التشريعات التي وضعها كان هدفها تحقيق هذا التعايش الإنساني العام، والبعد عن أي تحارب وصدام وصراع وتنازع يدمر الاجتماع الإنساني، وهذا واضح جلي في نصوص الوحي التي أشارت إلى أن الاختلاف سنة كونية، وأن الاختلاف الديني والمذهبي والعرقي واقع وسيستمر، وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بين الجميع (دكير: ٢٠١٣م، ص٥ –٦)؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾ (سورة هود)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (سورة السجدة).

أسس التعايش في المنظور الإسلامي:

إذا كان التعايش بين بني الإنسان يقتضي التآلف والتناغم، والاشتراك في تحقيق ما بين البشر من منافع، فإن هذا لا يعني أن مفهوم التعايش يستلزم – بالضرورة وعلى الإطلاق – القبول بنسق واحد من التفكير والسلوك، وصهر الجميع في بوتقته، كما لا يعني التنازل عن الحق أو توزيعه على المتعايشين بنسبة متساوية، بل يعني أن يحتفظ كل طرف بوضعه

الخاص، ويمارس نشاطه الديني أو المذهبي الفكري، في إطار الحقوق والحريات العامة التي يكفلها الإسلام بمضامينها المتوازنة والمرشدة، بحيث لا يسبب أحد الأطراف إخلالًا بأمن المجتمع مهما بلغت قوته عُدةً وعددًا (بوربعين ومعمر: ٢٠١٦م، ص٨٧)، ومن هنا كان لا بد من وضع أسس ضابطة، وأطر حاكمة، تظهر في إطارها مرونة تفعيل هذا المصطلح من المنظور الإسلامي في أرض الواقع، والتي تتبدى فيما يلي:

(١) الإنسان مخلوق مكرم:

لقد أولى الإسلام الإنسان مكانة متميزة بين سائر المخلوقات؛ فرفع قدره، وأعلى منزلته، وشرَّفه بالعقل؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ (سورة الإسراء)، يقول ابن عاشور: "وأما التفضيل على كثير من المخلوقات، فالمراد به التفضيل المشاهَد؛ لأنه موضع الامتنان، وذلك الذي جِماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلًا على البقية، والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه، ودفع الأضرار عنه، وبأنواع المعارف والعلوم، وهذا هو التفضيل المراد" (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٥٣٨٧).

وهذا التكريم والتفضيل إنما حباه الله تعالى للإنسان في أصل خِلقته، والجميع في أصل الخلقة سواء، وإذا كان هذا حال الإنسان – كل إنسان – مكرمٌ من حيث الخلقة، فإن التعايش المقصود هو التعايش المتوازن الذي يحفظ للجميع كرامته وحقوقه، ويحدد له واجباته في إطار ما شرع الله تعالى.

(٢) الاختلاف بين البشر سنة ربانية:

لقد اقتضت سنة الله (ﷻ) في خلقه ألا يكون البشر على نمط واحد في الشكل أو اللون أو العرق، أو حتى العقل ومستوى التفكير، قال تعالى:﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾(سورة الروم)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...۝١١٩﴾ (سورة هود)، وليس

التنوع في هذه الأنماط مدعاةً في الحقيقة إلى التنافر والتنازع والخلاف، بقدر ما هو مدعاة للتعاون والتشارك والتكامل؛ فكلهم في الأصل بشر – مهما كثروا أو اختلفوا – يجمعهم إطار الإنسانية الذي يمثل رابطة الائتلاف فيما بينهم، إذ ليس يجوز أن يكون الناس مختلفين في ظاهرهم، ولا يختلفون في باطنهم، وليس يجوز في الحكمة أن يكثروا ولا يختلفوا، وليس يجوز أيضًا أن يُضمَّ الجنس إلى النوع ولا يأتلفوا (التوحيدي: ١٩٤٤م، ص٤٩٠ – ٤٩١).

وفي إطار الإنسانية الواحدة يتميز كل إنسان بنبرة لسانه ونغمات صوته، وذبذبات نطقه وبصمة بَنَانِه عن سائر إخوته من بني الإنسان، وفي إطار البشرية الواحدة تتمايز الأمم باللغات، كما تتمايز الألوان والأجناس، وهذه التعددية في إطار الإنسانية الواحدة هي – في الرؤية الإسلامية – آية من آيات الله تعالى في الخلق، لا تبديل لها ولا تحويل، فالإنسانية جامع، والاختلاف تنوع في إطار هذا الجامع، لا قيام لطرف إلا بوجود الطرف الآخر، وذلك حتى يكون التفاعل والتعارف قائمًا – دائمًا وأبدًا – بين الفرقاء المتمايزين في المحيط الإنساني الجامع (عمارة: ٢٠٠٨م، ص١٠٨).

وإذا كان الله (ﷻ) قد ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ (سورة الفرقان)، فإن هذا الاختلاف والتنوع الذي فطر الله الناس عليه قد جاء لحكم إلهية بالغة؛ لأنه هو الحافز – بالتعدد والتنوع – للفرقاء المختلفين على التنافس والتدافع والاستباق؛ انتصارًا من كل فريق لما به يتميزون، وما فيه يختلفون عن الآخرين، ولو لم تكن هذه التعددية وهذا التنوع والاختلاف لما كانت حوافز الاستباق ودواعي التدافع وأسباب التنافس بين الأفراد والأمم والأفكار والفلسفات والحضارات، ولكانت الحياة سكونًا آسنًا، ومواتًا لا حيوية فيها، ولما استطاع الإنسان تحقيق مقاصد الأمانة التي حملها بالاستخلاف لعمارة الأرض، فالإيمان بالتنوع والتميز والاختلاف هو الحافز على الإبداع والتدافع في ميادين التقدم والعمران والارتقاء (عمارة: ٢٠٠٨م، ٢٦).

وواقع الأمر أن الإنسان – بما يملك من إرادة – مدفوع لأن يختار، وهو الذي يحدد المسار لاختياره، فقد يصبح "شريرًا" ويبحث عن مصلحته غير عابئ بالآخرين، أو يصبح "خيِّرًا" يحرص على مصالح الجميع مع مصلحته، ومع الطائفة الأولى تشقى البشرية، ومع الطائفة الثانية يسعد الكون، ومع الطائفة الأولى يحدث التصادم والقتال، ومع الطائفة الثانية يحدث التعارف والوئام، والإنسان هو الذي يختار في النهاية، وصدق الله (ﷻ) حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ

﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ (سورة البلد)، وعليه فالنظام الذي يمكن أن ينصلح عليه الكون، ويقل فيه التصادم هو نظام موجود وواقعي، وليس خياليًا، لكن الإنسان هو الذي يختار الفوضى، ويختار اللانظام، ويُعرض عامدًا عن الآليات التي تكفل للكون راحته، وتحقق سعادته (السرجاني: ٢٠١١م، ص١٣٥).

وفي النهاية، متى أيقن الناس جميعًا بأن بينهم اختلافات وتنوعات من حيث الخِلقة، وأنه لا فضل لأحد بعد الله تعالى في هذا الأمر، كان هذا مدعاة لتجنب أسباب الخلاف والشقاق فيما بينهم – من كِبْرٍ، واستئثارٍ بنعم الله، وطمعٍ فيما في يد الآخرين، وإشباعٍ لشَرَهِ التملك والسيطرة بلا ضابط، وغير ذلك – وحينها يصير الطريق ممهدًا لتحقيق التعايش المتوازن بين البشر.

(٣) حرية الاعتقاد حق مكفول للإنسان:

إذا كان الله (ﷻ) قد كرم الإنسان بالعقل، فإن من لوازم هذا التكريم إتاحة الحرية للإنسان في اختيار أفعاله، وتحمل عواقبها، ومن ثَمَّ المساءلة عنها، ويتسع إطار هذه الحرية ليشمل حرية الإنسان في الاعتقاد، فلم يعط الإسلام كائنًا من كان الحق في أن يفرض على غيره معتقدًا ما، وإنما الأمر مقصور على البلاغ وبيان وجه الحق ليس إلا؛ قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ (سورة البقرة)، يقول ابن كثير: "أي لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جليٌ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونوَّر بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرَهًا مقسورًا" (ابن كثير: ٢٠٠٠م، ص٣٢١).

وتأكيدًا لهذا المعنى بيَّن الله (ﷻ) لرسوله (ﷺ) حين بان من شدة حرصه (ﷺ) على هداية قومه للإسلام، وكأنه يُكرههم على الدخول فيه؛ أن مرد هداية توفيق الناس ومعونتهم على الدخول في الإسلام إلى الله تعالى وحده، إذ لو شاء سبحانه لهدى الناس جميعًا، فلا تَحْمِلَنَّ

أحدًا على الدخول في هذا الدين قسرًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (سورة يونس).

وتجسيرًا للفجوة المفتَعَلة بين حرية الإنسان المكفولة في اختيار معتقده، وبين عدالة المساءلة عن هذا الاختيار أمام الله (ﷻ) في الآخرة؛ تأتي أهمية توافر الدلائل الكونية الواضحة التي إن أعمل الإنسان فيها عقله – مناط التكليف والتكريم – بإنصاف وتجرد تأكد له بما لا يدع مجالًا للشك أن مرد الأمرِ كلِّهِ لله، وأن الدين الحق هو الإسلام الذي اختاره الله تعالى لعباده دينًا؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾(سورة فصلت).

وعليه، فإذا كانت حرية الاعتقاد مكفولة للإنسان في نظر الإسلام، وأنها داخلة في إطار التنوع والاختلاف بين البشر، فلا يضير الإنسانَ التعايشُ مع المخالف له في العقيدة، ما دام يلتزم بحق هذا التعايش، ويحفظ للآخرين حقوقهم، ويسهم بصورة أو بأخرى في الحفاظ على كيان المجتمع من الانهيار، بل ويساعد في رُقيِّه ورفعته.

(٤) ضرورة الحوار بين البشر:

لقد خلق الله (ﷻ) الإنسان نَزَّاعًا إلى التعارف، مَيَّالًا بفطرته النقية إلى التلاقي والتناغم مع بني جنسه، فهو كما يقال: مدني بطبيعته، ويلزم من هذا التلاقي والتعارف إيجاد أسلوب سويٍ للتواصل والتفاهم، ومن ثم التعايش بين البشر.

وتحتاج البشرية بمختلف ثقافاتها وتباين اتجاهاتها هذا الأسلوب من التفاهم والتعايش للعمل سويًا؛ حتى يستطيعوا أن يدرؤوا خطر النزاعات، ويحققوا الأمن والاستقرار، وينعموا بالسلام، ويتبادلوا المنافع بينهم في جو من السلم والاحترام، ولا يكون ذلك إلا بالحوار الذي يعني معرفة الآخرين بسلبياتهم وإيجابياتهم، والبحث عن القواسم المشتركة فيما بينهم للتحرك من خلالها، والسعي لإيجاد صيغة للتعايش السلمي مع ما في الشعوب من صور التباين والاختلاف، والتحاكم لقواعد منطقية تحكم اختلافاتنا أيًا كانت ثقافية أو نزاعات مصلحية (كوكو: ٢٠١٤م، ص١٨١).

وإذا كان الواقع المعاصر بما يسوده من أشكال العداوة والنزاع والحروب تحت مسميات متعددة، وبسبب مآرب ومقاصد طابعها الظلم، فلن يكون الخروج منها بغير حوار بنَّاء ينطلق من قيم الخير والحق والعدل؛ ليكون التعاون المثمر حضاريًا في سبيل إسعاد الإنسان، وهذا هو الحوار الذي يقبله المسلمون منطلقين فيه من شريعتهم الغراء (دهيش: ٢٠١٢م، ص٥).

ولقد أرسى القرآن الكريم ثقافة الحوار بين المسلمين؛ فعرض عقائد الإسلام بطريقة حوارية، وجادل خصومه بأسلوب الحوار، وأمر المسلمين استخدام الحوار في أمرهم كله سياسيًا كان أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا، بل في القرآن الكريم سورة سميت باسم (الشورى)، وهي تعبير صادق عن أهمية أسلوب الحوار وضروريته بين البشر(كوكو: ٢٠١٤م، ص١٨٧).

ولم يكن اعتماد الإسلام على الحوار مقصورًا على المستوى النظري، أو على مستوى النصوص القرآنية فقط، بل كان على مستوى التطبيق العملي الذي جسدته سيرة النبي الكريم (ﷺ) مع المسلمين وغيرهم على السواء، ويأتي في طليعة هذا التجسيد العملي تلك المعاهدات السياسية التي عقدها النبي (ﷺ) في المدينة المنورة بين المسلمين واليهود، والتي صيغت في شكل وثيقة سياسية، تعكس صورة فريدة من صور تسامح الإسلام واعترافه بالآخر؛ فكان مما ورد فيها: "أن يهود بني عوف أمةٌ من المؤمنين، لليهود دينُهم، وللمسلمين دينُهم، إلا من ظلم نفسه وأَثِمَ، فإنه لا يُوتغُ (لا يُهلِكُ) إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتَهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصرَ على من حارب أهل الصحيفة، وإن بينهم النصحَ والنصيحةَ والبرَّ دون الإثم" (الطيب: ٢٠١٣م، ص٧٣١).

وكان النبي (ﷺ) يلتزم في مواقفه – حتى مع أصحاب الأفكار المائلة عن الصواب – طريقَ الحوار القائم على الإقناع؛ ومن ذلك قصة الشاب الذي أتى الرسول (ﷺ) يستأذنه في الزنا، فلم ينهرْه (ﷺ)، ولم يقابله بحكم الشريعة الحاسم على تلك الجريمة النكراء، وإنما اتخذ الحوار أسلوبًا له حتى أقنعه بأنها فاحشة وساء سبيلًا، وكانت نتيجة هذا الحوار المقنعِ أن أقلع الشاب عن مجرد التفكير في هذه الفاحشة؛ عن أبي أمامة أن رجلًا أتى رسول الله (ﷺ)، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، فصاح به الناس، فقال النبي (ﷺ): **أَقِرُّوه**، فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله (ﷺ)، فقال له النبي (ﷺ): **أتحبه لأمك؟** قال: لا، قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم**، قال: **أتحبه لابنتك؟** قال: لا، قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم**، قال: **أتحبه**

لأختك؟ قال: لا، قال: **وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم**، فوضع رسولُ الله (ﷺ) يدَه على صدره، فقال: **اللهم كفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**" (الطبراني: د ت، ص١٨٣).

وليس مقصودُ الإسلام من الحوار مجردَ الحوار؛ وإنما الحوار الملتزم بآداب الحوار؛ والتي منها: بَدْأُ الحوار بالمتفَق عليه؛ تهيئةً لنفسية المحاوَر، وتمهيدًا لعرض الفكرة محل النقاش؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (سورة يونس)، فيحتج (ﷻ) على المشركين باعترافهم بربوبيته (ﷻ) على وحدانية الإله، فقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من ذا الذي يُنزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقًا بقدرته ومشيئته، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لسلبكم إياها، ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟ ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: لهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة (ابن كثير: ٢٠٠٠م، ص٩٣١ – ٩٣٢).

فقد أمر الله (ﷻ) نبيه (ﷺ) أن يهيئ نفوس قومه لتلقي الحق؛ فيبدأ محاورتهم بما استقر في أذهانهم، وما يعترفون به، ولا يملكون إنكاره؛ وهو اعترافهم بربوبيته (ﷻ) في تقدير الأرزاق، وهبة السمع والبصر، وتدبير الأمور والتصرف فيها؛ ليصل بهم في النهاية إلى أن مَن هذا شأنُه هو الأحق بإفراد العبادة دون غيره.

ومنها: أن يكون المحاورُ – في إطار الإسلام – مترفِّعًا عن الكبر، لا ينسب لنفسه فضلًا، إذ الحكم في الأولى والآخرة لله تعالى الذي يعلم الضال من المهتدي، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة سبأ).

ومنها: أن يوجه مقصده نحو طلب الحق واتباعِه، بغض النظر عمن جاء الحق على لسانه، قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (سورة سبأ) أي: "قل لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعًا لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويُتبع فيها الحق ويُجتنب الباطل، وأما الأعمال فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المتخاصمين أعدل العادلين" (السعدي: ٢٠٠٢م، ص٦٨٠)، وقال الشافعي: "ما ناظرت أحدًا قط إلا أحببت أن يوفَّق ويُسدَّد ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحدًا إلا ولم أبالِ بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه" (الأصفهاني: ١٩٩٦م، ص١١٨)، وقال أبو حامد الغزالي في ذكر علامات طالب الحق: "أن يكون في طلب الحق كناشد ضالةٍ لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا، ويشكره إذا عرف الخطأ وأظهر له الحق" (الغزالي: ٢٠٠٥م، ص٥٥).

ومنها: أن يحسن الإصغاء لحديث من يجادله، فلا يلتفت عنه، ولا يقاطعه، قال الحسين بن علي (ﷺ): "يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرصَ منك على أن تقول، وتعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثًا وإن طال حتى يمسك" (ابن عبد البر: ١٩٩٤م، ص٥٢١)؛ فيكون ذلك أوقع في نفس المستمع، وأرجى للقبول.

ومنها: أن يتجنب المحاورة فيما يجهل، فلا يجادل بغير علم؛ لأجل المفاخرة أو الظهور، أو غيرهما، فقد نعى القرآن على أهل الكتاب جدالهم بلا علم؛ فقال تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾(سورة آل عمران)، ففي الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، وقد ورد الأمر بالجدال لمن عَلِمَ وأيقن؛ فقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾(سورة النحل) (القرطبي: ٢٠٠٦م، ص١٦٥).

ومن هنا تظهر أهمية الحوار الراقي الملتزم بآدابه، وضروريته لبني البشر في عرض الأمور محل الخلاف، وبيان وجه الحق فيها، وما أن يصل أطراف الحوار إلى الحق حتى

يذعنوا له، وينطووا تحت لوائه، دون غضاضة من تفنيد حجة أحد، أو إظهار صريح خطئها، فالهدف واحد، وهو الوصول إلى الحق الذي يرتفع بامتثاله قدر الجميع، وإن تعددت في سبيله الوسائل المشروعة.

(٥) الرفق ولين الجانب في التعامل مع المخالف:

قد يلتزم المحاوِرُ مع المخالف له في الفكر أو المعتقد آدابَ الحوار جميعَها، لكنه قد يجد منه تجاهلًا وإعراضًا، أو غلظةً في الرد، أو إصرارًا على التمادي في الخطأ رُغم وضوح البينة وقوة الحجة، وهنا تأتي أهمية الرفق ولين الجانب مع المخالف؛ أمانًا للحوار وضمانًا لاستمراريته من ناحية، وطمعًا في توجيه المخالف إلى جادة الصواب، وحمايةً له من التمادي في طريقِ الخطأِ غيرِ محمودِ العاقبة من ناحية أخرى.

وفي التزام المُحاورِ بهذا الخلق الكريم اقتداءٌ بالنبي (ﷺ) الذي كان أرفق الناس بالناس وأبعدَهم عن التشديد والغلظة، وأكسبَهم لقلوب مخالفيه رُغم عنادهم وطغيانهم؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾(سورة آل عمران)، قال الإمام الطبري رحمه الله: وأما قوله ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ فإنه يعني بالفظ: الجافي، وبالغليظ القلب: القاسي القلب غير ذي رحمة ولا رأفة، فتأويل الكلام: فبرحمة الله يا محمد ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ لأتباعك وأصحابك، فسَهُلت لهم خلائقك، وحَسُنت لهم أخلاقك حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجُرم منهم جُرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقَكَ ولم يتبعْك، ولكن الله رحمهم ورحمك، فبرحمة من الله لنت لهم (الطبري: ١٩٩٤، ص٣٤١).

وتأكيدًا لأهمية الرفق واللين في محاورة المخالفين، وكيف أنه من أنجح الأساليب في كسب قلوب الآخرين، فقد تعامل به النبي (ﷺ) حتى مع الجُفاة من الناس؛ فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله (ﷺ) إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله (ﷺ): مَهْ مَهْ، قال: قال رسول الله (ﷺ): **لا تُزْرِموه، دعوه،** فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله (ﷺ) دعاه فقال له: **إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا**

البول ولا القَذَرِ، إنما هي لذكر الله (ﷻ)، والصلاة، وقراءة القرآن، قال: فأمر رجلًا من القوم، فجاء بدلو من ماء، فشنَّه عليه (مسلم: ٢٠٠٦م، ص٢٣٧)؛ فقد أثمر هذا الأسلوب في نفسية الأعرابي – بطبيعته الجافة – ارتياحًا وطواعية للنبي (ﷺ)، وشعورًا بعظم رفقه (ﷺ) وحسن معاملته.

وهدف الرفق هنا – وإن كان محمودًا لذاته – هو الطمع في ترقيق قلوب المخالفين وتصحيح أخطائهم بلين دون إضاعة للحق، أو تماشٍ مع أهوائهم الباطلة؛ ولهذا كان على المسلم أن يراعيَ في استخدام هذا الخلق مآلات الأمور؛ فلا يلين مع من يزيده اللين ميوعة أو طغيانًا، وقد يشدد على بعض الناس – كلٌ حسب حاله – ويكون في الوقت نفسه رفيقًا بهم؛ قال سفيان الثوري لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور في مواضعها: الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه، وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق (الغزالي: ٢٠٠٥، ص١٠٨٤)، وألا ينصب اهتمام المحاور على خلق الرفق نفسه من حيث هو، دون مراعاة أحوال وطبائع من يتحاور معهم، وما يترتب على ذلك من مصالح أو مفاسد.

وبهذا تكتمل الأسس الضابطة للتعايش من المنظور الإسلامي؛ فالإنسان المكرم من حيث الخِلقة، المتنوعُ لونًا وشكلًا وعرقًا وعقلًا، المكفولُ له حرية الاعتقاد، النزَّاع بفطرته إلى التعارف والتلاقي مع بني جنسه، يحتاج الحوار الملتزم بآدابه في التعامل المتوازن مع الآخرين، كما يحتاج الرفق واللين – والذي يعني وضع الشيء في موضعه – في حسن توجيه المخالف له إلى الحق، وإرجاعه إلى جادة الصواب متى حاد عنه، ومتى اتضحت هذه الصورة في ذهن كل إنسان، والتزم بها واقعًا معاشًا، وكانت حاكمة على تعامله مع الآخرين، لا شك أنها تثمر في النهاية تعايشًا متزنًا تصان فيه الحقوق، وتؤدى فيه الواجبات، وتعمَّر به الأرض، وتتحقق العبادة بمفهومها العام، والتي من أجلها خلق الله (ﷻ) الإنسان.

مظاهر التعايش في المنظور الإسلامي:

لقد راعى الإسلام – في إطار الأسس السابقة للتعايش – طبيعةَ الإنسان؛ من حيث التكريمُ الخِلقي، وتنوعُ الشكل واللون واللسان والعقل، والميلُ الفطري إلى التعارف والتآلف مع

الآخرين، ولم يقف الإسلام في هذه المراعاة عند حد التنظير والتأصيل، وإنما جاوز ذلك إلى الواقع المعاش ترجمةً وتفعيلًا.

وجاء موقف الإسلام من التعايش نابعًا من طبيعة الإنسان نفسه؛ لأنه أرقى الكائنات في عالم الشهادة، وهو أحوجها لأن يعيش في جماعة من الناس، يشارك فيه غيره مختلف ضروب الحياة بما فيها من تعاون وتكامل وتوزيع للأدوار، داخل مجتمع يقبل الفرد في إطار المجموعة؛ لتحقيق مصالح مشتركة (العلاني: ٢٠٠٥م، ص٢٥٦).

وشملت مظاهر التعايش في الإسلام كل من عاش في كنف الدولة الإسلامية مسلمًا أو غير مسلم، يجمعهم في ذلك رابط المصلحة العامة لدولة الإسلام من ناحية، ورابط الأخوة والقيم الأخلاقية العليا من ناحية أخرى، وكانت الصورة المثلى لهذا التعايش هي صورة مجتمع المدينة؛ فاليهودي والنصراني يعيشان فيها بأمان إلى جانب المسلمين في حمى الدولة الإسلامية، وكان الحبشيون الروميون والفارسيون يتمتعون فيها بكل حقوق المواطنة، وتعايَشَ الأوس جانب الأنصار (بوربعين ومعمر: ٢٠١٦م، ص٨٧).

ففي إطار تعايش المسلمين مع غيرهم من المسلمين؛ أعلى الإسلام من شأن الأخوَّةِ في الدين حتى جعل المسلمين فيما بينهم كالجسد الواحد راحة وألمًا؛ فقال (ﷺ): "**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**" (مسلم: ٢٠٠٦م، ص١٢٠١)، وعزز فيما بينهم النصرةَ في الحق، والتواصي بالخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله في كل ما أمر أو نهى، ورتب على ذلك الثوابَ العظيمَ بنيل رحمة الله تعالى ورضوانه؛ فقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾(سورة التوبة).

ونهاهم عن أن يعاير بعضهم بعضًا، وجعل هذه المعايرة دليلَ ظلمِ الجاني، وأمارةً عن تجاوزه حدود الإيمان؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ (سورة الحجرات)؛ أي: "ولا يعيب بعضكم بعضًا بالطعن في نسبه أو دينه،

واللمز: الطعن والضرب باللسان، والمؤمنون كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمنُ المؤمنَ فقد عاب نفسه" (ابن عجيبة: ١٤١٩هـ، ص٧٤٢).

وتأكيدًا على رابط الأخوة الدينية وما يلزمها من تعايش وتساند ومؤازرة؛ أوجب الإسلام على المؤمنين الصادقين – بحكم أخوَّتهم هذه – ألا يتركوا إخوانهم من المؤمنين تتخطفهم النزاعات وتفرق بينهم العداوات، وأن يتدخلوا للإصلاح بينهم؛ ترجمةً لتقوى الله تعالى وطمعًا في رحمته؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (سورة الحجرات).

وفي إطار تعايش المسلمين مع غيرهم؛ أرسى الإسلام دعائم التعايش بين أفراد المجتمع، فجعل الحوار العادل المراعي ما بين البشر من مشتركات وقواسم سبيلَ التلاقي، ومن ثم التعاون والتعايش؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (سورة آل عمران).

ومن مظاهر التعايش بين المسلمين وغيرهم؛ ما أحله الله تعالى للمسلمين من طعام أهل الكتاب، ومصاهرتهم؛ فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ (سورة المائدة).

وأوجب الله (ﷻ) على المسلمين التزام العدل حتى مع المخالفين، ونهاهم عن جَعْلِ بُغضِ المخالفين في الفكر أو الدين مبررًا لظلمهم وبخس حقوقهم؛ فشيمة المؤمنين العدل حتى مع المخالف وإن جار؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (سورة المائدة).

وفي سياق هذا التعايش حث الله تعالى عباده على التزام الإحسان والعدل مع المخالفين في الدين، ما لم يناصبوهم العداء، فإن ناصبوهم العداوة، فقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، فلا يوالوهم، بل ويقاتلوهم (شاكر والباز: ٢٠١٤م، ٤٤٠)؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (سورة الممتحنة).

وتدعيمًا لهذا التعايش المنضبط، رتَّب الإسلام العقوبة الشديدة والوعيد الأليم على من ظلم معاهَدًا (وهو الرجل من أهل الحرب يعطى الأمان لدخول دار الإسلام أو العيش فيها)؛ بقتل أو انتقاص حق؛ فقال (ﷺ): "**من قتل معاهَدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**" (ابن ماجة: د ت، ص٨٩٦)، وقال (ﷺ): "**ألا من ظلم معاهَدًا أو انتقصه حقه أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**" (أبو داود: ٢٠٠٩م، ص٦٥٨).

ولأن هدفَ الإسلام التعايشُ المتوازنُ الذي به تُعَمَّرُ الأرض، ويُعبَد الله تعالى كما أراد، أمر سبحانه عباده أن يميلوا إلى الصلحِ والمسالمةِ المنضبطةِ حال ميلِ العدوِ المحاربِ إليها؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (سورة الأنفال)، أي: "وإذا كان السلم هو المقصد الأول لا الحرب، أكده بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، أي: وإن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم، ولم يعتز بقوته فاجنح لها، لأنك أولى بالسلم منهم" (المراغي: ١٩٤٦م، ص٢٦).

مما سبق يتضح أن الإسلام الحنيف قد أرسى دعائم التعايش المتوازن بين أفراد المجتمع الواحد؛ فجعل لكل فرد في المجتمع – مهما اختلف لونه أو شكله أو معتقده – حقوقًا تؤدى، وألزمه بواجبات يؤديها، ومتى التزم الفرد بحقوقه وواجباته، وقدم المصلحة العامة على منافعه الخاصة، استقر المجتمع، ونَعِمَ الجميع بخيراته.

المحور الثالث: المشتركات الإنسانية في ضوء آيات النداءات العامة في القرآن الكريم:

تدور لفظة المشتركات في اللغة حول الاختلاط وتعدد الحقوق في الشيء الواحد، وهي مأخوذة من الفعل اشتركَ، يقال: اشتركَ، يشتركُ، اشتراكًا، فهو مشترِكٌ، والمفعول: مشترَكٌ فيه،

اشتركَ الأمرُ: اختلطَ والتبسَ، اشتركَ اللفظُ: احتمل أكثر من معنى، اشتركَ الرجلان في القضية: كان لكل منهما نصيب فيها (عمر: ٢٠٠٨م، ١١٩٤).

وفي الاصطلاح عبارة عن: قيم ومبادئ عابرة للثقافات، تلبي الحاجات الأساس للإنسانية، ويجتمع في اعتبارها والأخذ بها الناس جميعًا، أو غالبيتهم على الأقل، بالرغم من الاختلافات الأخرى بينهم (بن لحسن: ٢٠٢٢م/ ص٣٢٢)، وقيل: هي القيم الإنسانية الموجودة في جوهر كل الأديان والحضارات والمدارس الفكرية، التي تلبي حاجيات الإنسان الفطرية من حيث هو إنسان (رفيع: ٢٠١٢م، ص١٧)، أو هي: سمات عامة يجتمع الناس على تعظيمها واحترامها على مدار العصور، وتمثل قاعدة صلبة وأرضية موحدة للناس كافة، تجتمع على كليات لا يحاد عنها إلا في حالات استثنائية وظروف قاهرة، أو من قبيل فئة قليلة يمثلون خروجًا عن القاعدة (النامليتي: ٢٠٢٣م، ص٢١)، وعرفها آخرون بأنها: القيم المشتركة بين الناس على اختلاف انتماءاتهم الحضارية والمذهبية والثقافية والدينية (ربيعة سحنون: ٢٠٢٠م، ص٩٦)، في حين ذكر غيرهم أنها: مجموع الأفكار – التصورات، المبادئ، المفاهيم – والسلوكيات التي يتفق أو يتوافق ويتواطأ الناس – كلُّهم أو جلُّهم إلا ما شذ – على القول بها فطرة وعقلًا واجتماعًا، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات (الحارثي: ٢٠٢٠م، ص٦٣).

ومن منطلق التعريفات السابقة، وفي إطار منهجية الدراسة الحالية تمثل المشتركات الإنسانية إجرائيًا: القواسم العامة المشتركة بين بني الإنسان، متجاوزةً حدود الأعراق والأجناس والألوان، والتي تُستنبط من آيات النداءات العامة في القرآن الكريم.

وتسعى الدراسة الحالية في إطار هذا المحور إلى استنباط بعض المشتركات الإنسانية المتضمَّنة في آيات النداءات العامة (محل الدراسة)، والتأصيل لها، وبيان كيف يمكن صياغة مُدخل للتعايش بين البشر في ضوئها، وذلك فيما يلي:

(١) المشترك العقدي (الدين):

تمثل العقيدة الدينية أسمى المشتركات وأرقاها بين البشر، وخاصة إذا كان هذا الدين هو اختيار الله (ﷻ) لخلقه، فهو سبحانه الأعلم بما فيه صلاح عبادِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ (سورة آل عمران)، وقال تعالى:﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ (سورة البقرة)، ومع اختلاف الشرائع وتعددها بين البشر؛ ﴿... لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ... ٤٨﴾ (سورة المائدة)، إلا أن الدين واحد وهو الإسلام كما أوضحت الآيات.

وتستلزم العقيدةُ الدينيةُ – أول ما تستلزم – الإيمانَ بإلهية الله تعالى وربوبيته وأسمائه وصفاته، والتي يمكن اعتمادها مشتركًا إنسانيًا أكدته العديد من آيات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ (سورة البقرة)، فقد أمر جل ثناؤه جميع المكلَّفين من خلقه بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة؛ لأنه جل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم، فقال لهم جل ذكره: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو يقدر على ضركم ونفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر (الطبري: ج١، ١٩٩٤م، ص١٣٤).

وقد خص تعالى خَلقَه لهم من بين سائر صفاته (ﷻ) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ لأن العرب كانت مُقرةً بأن الله تعالى خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم، وتقريعًا لهم، وتذكيرًا بنعمته سبحانه وتعالى عليهم (القرطبي: ج٢، ٢٠٠٦م، ص٣٤١)، فانطلقت الآية الكريمة من مشترك إنساني عام ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ لتوجه الجميع إلى إفراده تعالى بالعبادة، والانقياد لأوامره ونواهيه (ﷻ).

وجاء خطابه (ﷻ) لعموم الناس بما ينفعهم؛ إرشادًا لهم، ورحمة بهم، لأنه (ﷻ) لا يرضى لهم الضلال، ولم يكن ما ذكر آنفًا من سوء صنعهم حائلًا دون إعادة إرشادهم والإقبال عليهم بالخطاب، ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولامهم وذم صنعهم، ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصًا على صلاحهم، وأنه غني عنهم، كما يفعله المربي الناصح حين يزجر أو يوبخ، فيرى انكسار نفس مرباه، فيجبر خاطره بكلمة لينة؛ ليريه أنه إنما أساء إليه استصلاحًا وحبًا لخيره، فلم يترك من رحمته لخلقه حتى في حال عُتوّهم وضلالهم، وفي حال حملهم إلى مصالحهم (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٣٢٤ – ٣٢٥).

ولعل في هذا ما يُلمِح إلى أن الناس متى تجاهلوا ما بينهم من قواسم عقدية مشتركة، وما يلزمها من ارتباطِ حقوقِ كل واحد منهم بواجباته – إذ هذه الحقوق وتلك الواجبات هي التي حددها الله تعالى – كان المجال متسعًا للفُرقة والنزاع، وهو ما جعل من تذكير الناس بما بينهم من مشتركات سامية مدخلًا فاعلًا وضروريًا للالتقاء في إطارٍ يحفظ للجميع حقوقهم، ويضمن استيفاءهم لها بكرامة.

وفي إطار الآية الكريمة السابقة جاء قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾(سورة يونس)، أي: قل لهم يا محمد إن كنتم في ريب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه، فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان التي لا تعقل، ولكن أعبد الله الذي يميتكم ويقبض أرواحكم، وأمرت أن أكون من المصدقين بآيات الله (ﷻ) (القرطبي ج١١، ٢٠٠٦م، ص٥٩)، فقد جعل النبي (ﷺ) من نفسه مثالًا في تنفيذ أوامر الله (ﷻ)، مشيرًا إليهم بأن الله تعالى الذي يميتهم ويقبض أرواحهم (وهو أمر مشترَك) هو الأحق (ﷻ) بالعبادة وحده دون غيره.

وتنويعًا لأسلوب عرض قضية المشترك العقدي؛ جاء قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾(سورة الحج) مستخدمًا أسلوب ضرب المثل في التأكيد على أن الخالق هو الله (ﷻ)، وهو وحده (ﷻ) الأحق بالعبادة؛ حيث يقول تعالى منبهًا على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾أي: بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئًا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرِها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (ابن كثير: ٢٠٠٠م،

ص١٢٨٧)، فإذا كان هذا حال ما يُعبد من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرها، عاجزة عن خلق ذبابة – مع حقارتها – فإن الأحق بالعبادة هو الله تعالى وحده الذي تُقِرُّون له بالخلق.

وما دام الله (ﷻ) هو الخالق، فهو الأعلم بما ينفع عباده وما يضرهم، وهو (ﷻ) مستغنٍ عن عبادِه، في الوقت الذين هم في أمس الحاجة إليه (ﷻ)؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (سورة فاطر)، أي: يا أيها الناس أنتم أولوا الحاجة والفقر إلى ربكم، فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا يغنكم من فقركم، وتُنْجَح لديه حوائجكم، وهو سبحانه الغني عن عبادتكم إياه، وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء، منكم ومن غيركم، المحمود على نعمه، فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال (الطبري: ج٦، ١٩٩٤م، ص٢٤٦-٢٤٧)، وقد أتبع سبحانه صفة (الغني) بـ (الحميد)؛ احتراسًا لدفع توهمهم أنه لما كان غنيًا عن استجابتهم وعبادتهم فَهُم معذورون في ألا يعبدوه، فنبَّه سبحانه على أنه موصوف بالحمد لمن عبده، واستجاب لدعوته (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٧٨٥٥).

وعليه فإن المشترك العقدي يعد جامعًا لجُلِّ الناس إن لم يكن كلهم، ويمكن التأسيس عليه، والانطلاق منه في تحديد إطار يجتمع الناس فيه، متجاوزين حدود الأعراق والأجناس والألوان، متعايشين داخله، متلاقين على ما فيه النفع الحقيقي لهم جميعًا.

(٢) مشترك مكفولية الرزق:

يحدث الخلاف والشقاق والصراع – غالبًا – على مستوى الأفراد والمجتمعات، بل والدول إما بسبب الرغبة في فرض الهيمنة والسيطرة على الآخر، وإما استيلاءً على ما في يديه؛ طمعًا أو عوزًا، وفي كلتا الحالتين يغفل الجميع أو يتغافلون عن حقيقة أن الإمكانات البشرية والمادية – الدافعة للهيمنة بسبب توافرها، أو الداعية إلى التطلع إلى ما في يد الآخرين بسبب الطمع أو الحاجة – هي في حقيقة الأمر رزق من الخالق سبحانه وتعالى لعباده لتستقيم شؤونهم، وليتعاون الجميع في إطار من التعايش المنضبط، الذي به تعمر الأرض ويتحقق الهدف الذي من أجله خلق الله الإنسان؛ ولهذا قرن الله (ﷻ) بين الهدف من خلق الإنسان وقيوميته (ﷻ) على قضية الرزق؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (سورة الذاريات).

ولأن الرزق بالنسبة للإنسان قضيةُ وجود، وإذا انعدم الرزق انعدمت الحياة؛ تكفَّل الله (ﷻ) به لمخلوقاته جميعًا وضمنه لهم، وبلغت قوة الضمان هذه أن أقسم الله (ﷻ) بذاته عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ (سورة الذاريات).

وتأكيدًا لضمان الرزق ومكفوليته للإنسان – كلِّ إنسان – أمر الله (ﷻ) عبادَه بعمارة الأرض والسعي بحثًا عن منابع الرزق فيها، وحضَّهم على أن يأكلوا من حلالها الطيب؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ...١٦٨﴾ (سورة البقرة)؛ أي: يا أيها الناس كلوا مما أحللت لكم من الأطعمة على لسان رسولي محمد (ﷺ)، فطيَّبته لكم، دون ما حرمته عليكم من المطاعم والمآكل، والتزموا طاعتي فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، مما أحللته لكم وحرمته عليكم، دون ما حرمتموه أنتم على أنفسكم وحللتموه، طاعةً منكم للشيطان واتباعًا لأمره (الطبري، ج١، ١٩٩٤م، ص٤٥٧ – ٤٥٨).

ولأن خيرات الأرض – وإن تعددت منابعها، وتباينت مقاديرها– مكفولة من الله (ﷻ) لجميع خلقه، ولكل إنسان – بحكم ما بين البشر في الرزق من مشتركات – الحق فيها بصورة أو بأخرى؛ أمر الله (ﷻ) بالتنعُّم المعتدل بهذه الخيرات، وعدم الإسراف فيها؛ استمرارًا لبقائها، وإقرارًا بحق الآخرين فيها؛ فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ (سورة الأعراف)، أي: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ من الكساء واللباس، ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ﴾ من طيبات ما رزقتكم، وحللته لكم، ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ من حلال الأشربة، ولا تحرموا إلا ما حرمت عليكم في كتابي، أو على لسان رسولي محمد (ﷺ)، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي: لا يحب المعتدين حده في حلال أو حرام، ولكنه يحب أن يُحَلَّل ما أحل ويُحَرَّم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به (الطبري: ج٣، ١٩٩٤م، ص٤٢٧).

ولا يقف الرزق المكفول عند الحد المادي بما يشمله من خيرات الأرض، وإنما يتجاوز ذلك إلى الرزق العقلي والعلمي، وإلى الحد الذي لا يمكن أن يتصوره إنسان؛ فالله تعالى هو الكريم الوهاب الرزاق، وما عند الله (ﷻ) لا ينفد أبدًا؛ قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ (سورة النمل)؛ أي: وقال

سليمان لقومه: يا أيها الناس فُهِّمنا كلام الطير، وأُعطينا من كل شيء من الخيرات، وإن هذا الذي أوتينا يبين لمن تأمله وتدبره أنه فضل أُعطيناه على من سوانا من الناس (الطبري: ج٥، ١٩٩٤م، ص٥٥٢).

وإشارة إلى مكفولية الرزق، وأنه يمكن اعتماده مشتركًا بين البشر وأساسًا للتواصل بينهم؛ قرن (ﷻ) بين الرزق وبين مشتركٍ آخر متفقٍ عليه، وهو كونه (ﷻ) خالقًا؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾(سورة فاطر)؛ أي: يا أيها الناس اذكروا ما أنعم الله به عليكم، مما فتح لكم من خيرات، وما بسط لكم من العيش، وفكروا هل من خالق سوى فاطر السموات والأرض الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها، فلا تعبدوا أيها الناس شيئًا سواه، فإنه لا يقدر على نفعكم وضركم سواه، فله أخلصوا العبادة، وإياه فأفردوا بالألوهية، ولا تُصرَفوا عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم لأي وجه (الطبري: ج٦، ١٩٩٤م، ص٢٣٨ – ٢٣٩).

والاستفهام في قوله تعالى ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ إنكاري في معنى النفي، ولذلك اقترن ما بعده بـ (مِن)، وفي الآية استدلال عن انتفاء وصف الخالقية عن غيره تعالى؛ لأنه لو كان غيره خالقًا لكان رازقًا، إذ الخلق بدون رزق قصور في الخالقية؛ لأن المخلوق بدون رزق لا يلبث أن يصير إلى الهلاك والعدم، فيكون خلقُه عبثًا يُنَزَّه عنه الموصوف بالإلهية، فكانت الآية مذكرةً بنعمتي الإيجاد والإمداد، وزيادة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تذكير بتعدد مصادر الأرزاق، وفي هذا دفع لتوهم الغُفَّل أن أرزاقًا تأتيهم من غير الله من أنواع العطايا التي يعطيها بعضهم بعضًا، والمعاوضات التي يعاوضها بعضهم مع بعض، فإنها لكثرة تداولها بينهم قد يلهيهم الشغل بها عن التدبر في أصول منابعها، فإن أصول مَوادِّها من صنع الله تعالى، فآل ما يُعطاهُ الناس منها إلى أنه من الله تعالى (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٧٨٢٣ – ٧٨٢٤).

وفي ضوء ما سبق من إشارات للآيات الكريمات يعد ضمانُ رزقِ الإنسانِ مشتركًا عامًا بين الناس، يمكن التأسيس عليه في وضع أطر للتحاور البناء المُفضِي إلى التعايش المتوازن، بدلًا من اعتماده مسوغًا للخلاف والصراع بين البشر؛ رغبة في فرض السيطرة على الآخر، ونزوعًا إلى شَرَهِ التملكِ والتمادي فيه، أو طمعًا في تحقيق حد الكفاية ولو على حساب الآخرين.

(٣) مشترك وحدة الحلق (وحدة الأصل):

يعود جميع الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وألسنتهم إلى أصل خِلْقي واحد، وهو آدم عليه السلام، فآدم أبو البشر، وبحكم هذا المشترك كان على الناس أن يتعايشوا، لا أن يتنازعوا أو يتصارعوا، وأن يعلموا أنهم وإن اختلفوا فيما بينهم إلا أن بينهم رابطًا يُلزِم كلَّ واحد منهم بواجبات نحو الآخرين، ويجعل لهم في نفس الوقت حقوقًا يجب أن تؤدى، وكثيرًا ما ذكَّر الله (ﷻ) عباده بهذا الأصل؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (سورة النساء)، أي: يا أيها الناس احذروا ربَّكم – في أن تخالفوه فيما أمركم وفيما نهاكم، فيحل لكم من عقوبته ما لا قِبَلَ لكم به – المتوحدَ بخلق جميع الأنام من شخص واحد، فعرَّف عبادَه كيف كان مبتدأُ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ونبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه؛ لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإنْ بَعُدَ التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثلُ الذي يلزمهم من ذلك في النسب (الطبري: ج٢، ١٩٩٤م، ص٣٨٧).

وبمزيد توضيح لطبيعة النفس الواحدة التي ينتسب إليها جميع الناس؛ بيَّن الله تعالى أن الإنسان بطبيعته على اختلاف لونه وجنسه إنما هو نتاج علاقة بين ذكر وأنثى، والكل في ذلك سواء؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾(سورة الحجرات)، أي: يا أيها الناس إنا خلقناكم من آدم وحواء، فكلكم متساوون في النسب، وجعلناكم شعوبًا وقبائل ليعرف بعضكم بعضًا في قُربِ النسب وبُعدِه، لا لتتفاخروا، فأرفعكم منزلة عند الله تعالى أتقاكم (البغوي: مج٧، ١٤١٢هـ، ص٣٤٧ – ٣٤٨).

وفي إطار وحدة الأصل هذه كان على جميع الناس أن يبحثوا ويُفَعِّلوا فيما بينهم سبلَ التواصل والتعارف، ويستثمروا قدراتهم وإمكاناتهم المادية والبشرية في خدمة أنفسهم والآخرين، بدلًا من التقاطع والتصادم الذي لا يجني الجميع منه في نهاية المطاف إلا هدرًا للموارد، وخرابًا للعمران، وضياعًا للإنسان.

(٤) مشترك عداوة الشيطان:

إذا كان البشر مكرَّمون من حيث أصل الخلقة، وهم في ذلك سواء، فإن أجلَّ أماراتِ التكريمِ العقلُ الذي حباه اللهُ (ﷻ) الإنسانَ وكرمه به على سائر خلقه، والذي به حاز شرفَ التكليف، وتحمل به تبعةَ قراراته مساءلةً ومحاسبةً، وحتى يتاح المجال لهذا العقل أن يعمل ويختار ويمايز بين الخير والشر، لم تكن حياة الإنسان رغدًا وترفًا على الدوام، وإنما امتلأت بابتلاءات تعيق، وحواجز تنمع؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (سورة الأنبياء)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾(سورة الانشقاق)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ (سورة البلد).

ومن أبرز ما يعانيه الإنسان – كل إنسان – في حياته تلك العداوة الأبديةُ المعلَنة من الشيطان لابن آدم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (سورة الأعراف).

وإجلاءً لهذه العداوة، وبيانًا لخطورتها على الإنسان في الدنيا والآخرة؛ نهى الله (ﷻ) الناسَ عن أن يتبعوا غوايات الشيطان، أو أن ينجذبوا لاستمالاته، فهو عدو ظاهر العداوة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ (سورة البقرة)؛ أي: يا أيها الناس كلوا مما أحللت لكم، ودعوا خطوات الشيطان، فلا تتبعوها، ولا تعملوا بها؛ إن الشيطان قد أبان لكم عداوتَه، بإبائه عن السجود لأبيكم، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة، واستزله بالخطيئة، وأكل من الشجرة، فلا تَنْتَصِحوه أيها الناس مع إبانته لكم العداوة، ودعوا ما يأمركم به، والتزموا طاعتي فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه (الطبري، ج١، ١٩٩٤م، ص٤٥٧ – ٤٥٨)، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بنيه (القرطبي: ج٣، ٢٠٠٦م، ص١٣).

ومن الحذر ألا يسترسل الإنسان مع ما يُحدثه الشيطان في نفس الإنسان من خواطر سيئة؛ لأن الشياطين موجودات مدركة لها اتصال بالنفوس البشرية، فإذا حصل التوجه من أحدها إلى الآخر، حدثت في النفس خواطرُ سيئة، فإن أرسل المكلف نفسه لاتباعها ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة حققها في فعله، وإن كبحها وصدها عن ذلك غلبها، ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة والقدرة، وكمَّل لنا ذلك بالهَدي الديني؛ عونًا وعصمة عن تلبيتها، لئلا تُضلنا الخواطر الشيطانية، حتى نرى حَسَنًا ما ليس بالحسن (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٨٥٧).

وتأكيدًا لخطورة عداوة الشيطان للإنسان؛ بيَّن الله (ﷻ) أن الشيطان بوساوسه إنما يخرج بالإنسان عن دائرة الفطرة النقية التي فطره الله تعالى عليها؛ فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾(سورة الأعراف)؛ أي: لما كان إلهام اللهِ آدمَ – بعد أن أغواه الشيطان بالأكل من الشجرة، وانكشاف سوأته – أن يستر نفسه بورق الجنة منةً عليه، وقد تقلَّدها بنوه، خوطب الناس بشمول هذه المنة لهم، بعنوانٍ يدل على أنها منة موروثة، ولذلك سمّى تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه إنزالًا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أول مظاهر الحضارة، وقد كان ذلك اللباس الذي نزل به آدم هو أصل اللباس الذي يستعمله البشر، وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام، وأنه مما كرَّم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٣١٥٥-٣١٥٦).

وازداد الأمر وضوحًا فحذرهم (ﷻ) من فتنة الشيطان وغوايته المستمرة، والتي تسببت من قبل في إخراج أبويهم من الجنة، وأنه محصَّن – بعدم رؤية الإنسان له – تحصينًا يزيد من خطر عداوته؛ فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾(سورة الأعراف)، وجملة: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ واقعةٌ موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده، لأن شأن الحَذِرِ أن يرصد الشيء المخوِّفَ بنظره ليحترسَ منه إذا رأى بوادره، فأخبر اللهُ الناسَ بأن الشياطين ترى البشر، وأن البشر لا يرونها؛ إظهارًا للتفاوت بين جانبِ كيدِهم وجانبِ حذرِ الناس منهم، فإن جانبَ كيدِهم قويٌ متمكن،

وجانبَ حذرِ الناس منهم ضعيف، لأنهم يأتون المكيدَ من حيث لا يدري (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٣١٦١).

وفي الإطار نفسه، وتقريبًا للصورة المستقبلية المترتبة على اتباع الناس لخطوات الشيطان، وعدم انصياعهم لأمر الله تعالى، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾(سورة يس)؛ أي: ألم أوصكم وآمركم في الدنيا ألا تعبدوا الشيطان، فتطيعوه في معصية الله، فإن الشيطان قد أبان لكم عداوته بامتناعه عن السجود لأبيكم آدم؛ حسدًا منه له على ما كان الله أعطاه من الكرامة، وغروره إياه حتى أخرجه وزوجته من الجنة (الطبري: ج٦، ١٩٩٤م، ص٢٨٤)، والاستفهام هنا تقريري، وخوطبوا بعنوان (بني آدم)؛ لأن مقام التوبيخ على عبادتهم الشيطان يقتضي تذكيرَهم بأنهم أبناء الذي جعله الشيطانُ عدوًا له (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٧٩٩٤).

وفي إطار ما سبق تشير الآيات الكريمات إلى مشترك إنساني؛ وهو تعرُّضُ الإنسانِ – كل إنسان – لغوايةِ الشيطان، تعرضٌ يدفع الإنسان دفعًا – ما لم يتحصَّن بتعاليم الإسلام – إلى أن يسلك مسالك الغواية، مخالفًا أوامر الله (ﷻ) ونواهيه، فيُصرفَ عن الهدف الذي من أجله خُلق، ويسعى جاهدًا بكل السبل لإشباع رغباته ونزواته، دون ضابط من دين، أو رادع من ضمير، ولو كان ذلك على حساب حقوق الآخرين ومصالحهم، وهو ما يدفع في النهاية إلى قطع سبل الحوار والتواصل مع الآخرين، ومن ثم حدوث الشقاق والتصارع بينهم.

(٥) مشترك الحاجة إلى الرسالات:

لما كان الإنسان نزَّاعًا إلى الشر أو إلى الخير، بحكم ما يملكه من عقل وإرادة واختيار، وكان محاطًا في الدنيا بأعداء ملازمين (النفس – فتنة الدنيا – الشيطان)؛ كان في حاجة دائمة إلى مرشدٍ للخير دالٍ عليه، محذِّرٍ من طرق الضلالة مخوِّفٍ من آثارها، ولأن الله (ﷻ) هو الأعلم بما فيه صلاح خلقه، اصطفى من بين خلقه لهذه المهمة رسلًا مبشرين ومنذرين، وأمر خلقَه بأن يتبعوهم فيما يأمرونهم به مما فيه صلاحهم، وأن ينتهوا عما ينهونهم عنه مما فيه شقاؤهم وهلاكهم؛ قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧٠﴾ (سورة النساء)؛ أي: قد جاءكم محمد (ﷺ) بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله (ﷻ)، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا

لكم، وإن تكفروا فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، وكان الله عليمًا بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيُغويه، حكيمًا في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره (ابن كثير: ٢٠٠٠م، ص٥٦٣).

وأشار سبحانه وتعالى إلى ما أيد به رسله من المعجزات الدالة على صدقهم فيما يبلغون عنه سبحانه؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ (سورة النساء)؛ حيث يقول تعالى مخاطبًا جميع الناس، ومخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة؛ قال ابن جُرَيج وغيره: وهو القرآن (ابن كثير: ٢٠٠٠م، ص٥٦٦).

وتأكيدًا لهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾(سورة يونس)؛ أي: يا أيها الناس قد جاءتكم ذكرى من عند ربكم، لم يختلقْها محمد (ﷺ)، ولم يفتعلْها أحد، تذكّركم عقاب الله وتخوِّفكم وعيده، وهي القرآن الذي يشفي به الله جهل الجهَّال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به مِن خَلْقِه من أراد هدايته به، وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليل على طاعته ومعصيته، ويرحم به من شاء من خلقه، وجعله تعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به؛ لأن من كفر به فهو على عمى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلود في لظى (الطبري: ج٤، ١٩٩٤م، ص٢١٩)، كما أن في هذا القرآن شفاء لما في الصدور من الشك والنفاق والخلاف والشقاق (القرطبي: ج١١، ٢٠٠٦م، ص١٠)، ووجِّه الخطاب هنا لجميع الناس؛ لما في القرآن من المنافع الصالحة لهم، والإشارة إلى اختلافهم في مقدار الانتفاع به، والمعنى: أن القرآن موعظة لجميع الناس، وإنما انتفع بموعظته المؤمنون، فاهتدوا، وكان لهم رحمة (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٤١٨٩).

وفي إشارة لطيفة إلى أهمية العقل وما يلزمه من اختيارٍ تتحدد في إطاره مساءلة الإنسان ومحاسبته أمام الله تعالى في الآخرة؛ يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾(سورة الأعراف)؛ أي: يا بني آدم إن يجئكم رسلي الذين أرسلهم إليكم – من أنفسكم ومن عشائركم وقبائلكم – بدعائكم إلى طاعتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي، يتلون عليكم آيات كتابي، ويعرفونكم أدلتي على صدق ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي، فمن آمن منكم بما أتاكم به رسلي، وأصلح

أعماله التي كان لها مُفسدًا قبل ذلك، فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تجنبوها؛ اتباعًا منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك (الطبري: ج٣، ١٩٩٤م، ص٤٣٠-٤٣١).

واستمرارًا في التأكيد على صدق الرسل فيما يبلغون عن الله تعالى، وأن رسالة النبي (ﷺ) إلى الناس عامة، إذ هي خاتم الرسالات؛ يربط الله (ﷻ) بين الإيمان برسالة النبي (ﷺ) والإيمان بوحدانية الله (ﷻ) وربوبيته؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾(سورة الأعراف)؛ أي: يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد (ﷺ) قل يا أيها الناس، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، إني رسول الله إلى جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، والذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم، فآمِنوا بي، فأنا النبي الأمي الذي وُعدتم به وبُشرتم به في الكتب المتقدمة، واسلكوا طريقي واقتفوا أثري لعلكم تهتدون إلى الصراط المستقيم (ابن كثير: ٢٠٠٠م، ص٧٩١-٧٩٢).

وإظهارًا لهدف آخر من بعثته (ﷺ)، وهو الإنذار بعذاب الله وعقابه لمن خالف أمره ولم يؤمن برسوله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾(سورة الحج)؛ أي: قل يا محمد (ﷺ) لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علم: أنذركم عقاب الله أن ينزل بكم في الدنيا، وعذابه في الآخرة أن تَصْلَوْه، وأبيّن لكم ذلك وأُظهره؛ لتُنيبوا من شرككم، وتَحذَروا ما أنذركم من ذلك (الطبري: ج٥، ١٩٩٤م، ص٣٢٩).

ومما سبق يتبين حاجة البشر جميعًا إلى وحي السماء (إرسال الرسل مبشرين ومنذرين) الذي به يهتدون إلى الخير والرشاد، وبه يحذرون من مخاطر الضلال والغواية، والتي يمكن اعتبارها مشتركًا عامًا تُضيَّق به فجوات التصارع بين البشر، ويُرجع إليه في مواطن الخلاف؛ امتثالًا لقول الله (ﷻ): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (سورة النساء).

(٦) مشترك الحاجة إلى التعارف:

لقد خلق الله (ﷻ) الناس جميعًا من أصل واحد، وجعلهم مختلفين فيما بينهم لونًا وجنسًا ولسانًا وعقلًا، وجعل هذا الاختلاف مظنة التقارب والتعارف والتكامل، فهو اختلاف في إطار الوحدة الإنسانية؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾(سورة الحجرات)، وقوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾أي: ليعرف بعضكم بعضًا في النسب، يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس؛ ليعرف بعضُكم بعضًا في قربِ القرابةِ منه وبُعدِه، لا لفضيلةٍ لكم في ذلك، وقربةٍ تقربكم إلى الله، بل أكرمُكم عند الله أتقاكم (الطبري: ج٧، ١٩٩٤م، ص٨٦).

والخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني، ليُتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض، والمعنى المقصود من ذلك: هو مضمون جملة ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، فتلك الجملة تنزل من جملة ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ منزلة المقصد من المقدمة والنتيجة من القياس، ولذلك فصلت؛ لأنها بمنزلة البيان (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٩٣٣٤ – ٩٣٣٥)، ولعل في هذا إشارة إلى أن التعارف الذي وجهت إليه الآية الكريمة، والذي يحتاجه الناس جميعًا لتستقيم حياتهم، هو الآخر يحتاج إلى إرادة حقيقية لتفعيله في الواقع الإنساني المعاش، تلك الإرادة التي تفرض على الجميع الاعتراف بحق الآخرين في الحياة المستقرة الآمنة، والتي لا سبيل لتحقيقها إلا بالتعايش المنضبط بوحي السماء.

(٧) مشترك المساءلة الأخروية (وحدة المصير):

لقد أكرم الله (ﷻ) الإنسان بالعقل الذي يميز به بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ (سورة البلد)، وارتبط بهذا العقل امتلاك الإنسان للحرية والإرادة الكاملة لاختيار أفعاله المسؤول عنها، وما دام الإنسان عاقلًا حرًا كان مسؤولًا عن أفعاله محاسَبًا عنها في الدنيا أو في الآخرة، ولما كان البعض في الدنيا يملك من القدرة ما يستطيع به قلبَ الحقائق، أو التحصنَ بثغرات القوانين الوضعية، أو طمسَ أدلة إدانته، وغيرها من الطرق الملتوية التي تضيع بها الحقوق، وتؤصَّلُ بها الطبقية المجتمعية المجحفة، لما كان الأمر كذلك

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون بين الناس مشتركًا عامًا يتساوى فيه الجميع، لا فرق فيه بين حاكم أو محكوم، وهو وحدة المصير والمساءلة أمام الله (ﷻ) في الآخرة.

وفي إشارة لهذا المشترك الإنساني جاء قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة يونس)، وقوله سبحانه: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دعوه وحدَه وتركوا ما كانوا يعبدون، وفي هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يُجاب دعاؤه وإن كان كافرًا؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وباله عائد عليكم، وهو متاع في الحياة الدنيا، ولا بقاء له (القرطبي: ج١٠، ٢٠٠٦م، ص٤٧٥- ٤٧٦)، وفي قصر البغي على كونه مضرًا بهم؛ تنبيه على حقيقة واقعية وموعظة لهم؛ ليعلموا أن التحذير من الشرك والتهديد عليه لمراعاة صلاحهم، لا لأنهم يضرونه سبحانه وتعالى ببغيهم (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٤١٢٨).

وفي سياق ما سبق جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾(سورة يونس)؛ أي: قل يا محمد للناس قد جاءكم كتاب الله فيه بيان كلِّ ما بالناس إليه حاجة من أمر دينهم، فمن استقام فسلك سبيل الحق، وصدَّق بما جاء من عند الله من البيان، فإنما يستقيم على الهدى ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها، ومن اعوج عن الحق الذي أتاه من عند الله، وخالف دينه وما بَعث به محمدًا والكتاب الذي أنزله عليه، فإن ضلاله ذلك إنما يجني به على نفسه، لا على غيرها، لأنه لا يُؤخذ بذلك غيرُها، ولا يورد بضلاله ذلك المهالكَ سوى نفسِه، ولا تزر وازرة وزر أخرى (الطبري: ج٤، ١٩٩٤م، ص٢٤٩-٢٥٠).

وافتتحت الآية الكريمة بـ (قل) للتنبيه على أنه تبليغ عن الله تعالى، فهو جدير بالتلقي، وافتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم، والخطاب لجميع الناس من

مؤمن وكافر، واختيار وصف الرب المضاف إلى ضمير (الناس) على اسم الجلالة؛ للتنبيه على أنه إرشاد من الذي يحب صلاح عباده، ويدعوهم إلى ما فيه نفعهم شأن من يرب، أي: يسوس ويدبر (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٤٢٩٧).

وتأكيدًا بالسياق على مساءلة الناس جميعًا أمام الله تعالى في الآخرة جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾(سورة الحج)؛ أي: يا أيها الناس احذروا عقاب ربكم بطاعته، فأطيعوه ولا تعصوه، فإن عقابه لمن عاقبه يوم القيامة شديد (الطبري: ج٥، ١٩٩٤م، ص٢٩١)، وفي الآية نداء للناس كلهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة، ليتلقوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي: خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله، فتقوى كل فريق بحسب حالهم من التلبس بما نهى الله عنه والتفريط فيما أمر به، ليستبدلوا ذلك بضده، وجملة ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ في موضع العلة للأمر بالتقوى (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٦١٥١- ٦١٥٢).

واستخدم القرآن الكريم الدليل العلمي المشاهَد في تأكيد وحدة مصير الإنسان، وحتمية رجوعه إلى الله (ﷻ) في الآخرة، ووقوفه أمامه جل وعلا للمساءلة والحساب؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾(سورة الحج)، والمعنى: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبِلاكم؛ استعظامًا منكم لذلك، فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم (ﷺ) من تراب، ثم إنشائنا لكم من نطفة آدم، ثم تصريفنا لأحوالكم حالًا بعد حال، من نطفة إلى علقة، ثم من علقة إلى مضغة، لكم معتَبَرًا ومُتَّعظًا تعتبرون به، فتعلمون أن من قَدَر على ذلك فغير متعذّرٍ عليه إعادتكم بعد فنائكم، كما كنتم أحياء قبل الفناء (الطبري: ج٥، ١٩٩٤م، ص٢٩٣)، ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾، أي: لنظهر لكم إذا تأملتم دليلًا واضحًا على إمكان الإحياء بعد الموت

(ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٦١٦٥)؛ للمساءلة والحساب أمام الله (ﷻ)، واستيفاء الجزاء العادل على ما قدمتموه في الدنيا من خير أو شر.

وفي إشارة إلى مطلق العدالة الربانية في الآخرة، والتي يستوفي بها كل ذي حقٍ حقَّه أكد الله (ﷻ) أن يوم القيامة هو يوم مساءلةِ كلِ إنسان عما قدمته يداه، فلا يحاسَب أحدٌ عن أحدٍ، حتى الوالد عن ولده، أو المولود عن والده؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ (سورة لقمان)؛ أي: يا أيها الناس اتقوا الله، وخافوا أن يحل بكم سخطُه في يومٍ لا يُغني والد عن ولده، ولا مولودٌ هو مُغْنٍ عن والده شيئًا، لأن الأمر يصير هنالك بيد من لا يُغالَب، ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا (الطبري: ج٦، ١٩٩٤م، ص١٣٨).

وفي السياق نفسه جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾(سورة فاطر)؛ أي: يا أيها الناس إن وعد الله إياكم بأسَه على إصراركم على الكفر به، وتكذيب رسوله محمد (ﷺ)، وتحذيركم نزول سطوته بكم على ذلك حقٌ، فأيقنوا بذلك، وبادروا حلول عقوبتكم بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله والإيمان به وبرسوله، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا، ورياستكم التي تترأسون بها في ضعفائكم فيها عن اتباع محمد والإيمان، ولا يخدعنكم بالله الشيطان، فيمنيكم الأمانيَّ، ويعدكم من الله العِدَاتِ الكاذبةَ، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله تعالى (الطبري: ج٦، ١٩٩٤م، ص٢٣٩-٢٤٠)

وأعيد خطاب الناس هنا بعد ذكره في الآية قبل السابقة لهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ (سورة فاطر)؛ إعذارًا لهم وإنذارًا بتحقيق أن وعد الله الذي وعده من عقابه المكذبين في يوم البعث هو وعد واقع لا يتخلف، وذلك بعد أن قدم لهم التذكير بدلائل الوحدانية المشتملة عليها، مع الدلالة على نعم الله عليهم ليعلموا أنه لا يستحق العبادة غيره، وأنه لا يتصف بالإلهية الحق غيرُه، وبعد أن أشار إليهم بأن ما أنتجته تلك الدلائل هو ما أنبأهم به الرسول (ﷺ)، فيعلمون صدقه فيما أنبأهم من توحيد الله، وهو أكبر ما قرع آذانهم وأحرج شيء

لنفوسهم، فإذا تأيَّد بالدليل البرهاني تمهد السبيل لتصديق الرسول (ﷺ) فيما أخبرهم به من وعد الله، وهو يوم البعث؛ لأنه لما تبين صدقُه في الأولى، يُعلم صدقه في الثانية، بحكم قياس المساواة (ابن عاشور: ١٩٨٤م، ص٧٨٢٦ – ٧٨٢٧).

ومما سبق يتبين أن مشترك المساءلة الأخروية أمام الله تعالى هو أحد الضمانات التي يستوفي بها الجميع حقوقهم التي سُلبت منهم في الدنيا، والتي حُرموا منها بطغيان بعضهم على بعض.

وبنظرة كلية للمشتركات الإنسانية التي تم استنباطها من آيات النداءات العامة (محل الدراسة) يتبين تناغمها وارتباطها، وكأنها تسير في طريق واحد تضع أساسًا متينًا للتعايش المتوازن بين البشر؛ فالله (ﷻ) وحده هو خالقُ البشر الضامنُ لرزقهم، ولأنه سبحانه وتعالى الأعلم بما فيه صلاحهم، بيَّن لهم خطر الشيطان وحذرهم من وساوسه، وأرسل إليهم الرسل هادين إلى طريق الحق؛ مبشرين بالنعيم لمن سار عليه، ومنذرين من حاد عن هذا الطريق بسوء العاقبة، وهيأ لهم سبل التواصل والتعارف حين أدام تذكيرهم بأنهم متساوون في أصل الخلقة، وأن معيار التفاضل عند الله تعالى هو التقوى، وإن حاد أحد عن جادة الصواب فظلم وطغى، وسَلِم من الجزاء في الدنيا، كانت محاسبةُ الآخرةِ الطريقَ الأوثقَ الذي به تعاد الحقوق لأصحابها؛ حيث لا جور ولا ظلم في حضرة أحكم الحاكمين (ﷻ).

ملخص نتائج الدراسة:

بعد تناول محاور الدراسة بالشرح والتوضيح، يمكن عرضُ ملخصٍ لنتائجها فيما يلي:

- ألمحت آيات النداءات العامة (محل الدراسة) بشكل عام في ضوء عددها ومواطن نزولها إلى وجود قواسم مشتركة بين البشر.
- من أسس التعايش في المنظور الإسلامي: أن الإنسان مخلوق مكرم، وأن الاختلاف بين البشر سنة ربانية، وأن حرية الاعتقاد حق مكفول للإنسان، وأن الحوار ضرورة بين البشر، وأن للرفق واللين في التعامل مع المخالف أهميته.

- أرسى الإسلام دعائم التعايش المتوازن بين أفراد المجتمع الواحد واقعًا ملموسًا؛ فجعل لكل فرد في المجتمع – مهما اختلف لونه أو شكله أو معتقده – حقوقًا تؤدى، وألزمه بواجبات يؤديها.
- تضمنت آيات النداءات العامة (محل الدراسة) مشتركات إنسانية تمثلت في: المشترك العقدي، مكفولية الرزق، وحدة الخلق، عداوة الشيطان، الحاجة إلى الرسالات، الحاجة إلى التعارف، المساءلة الأخروية.

المحور الرابع: المدخل المقترح للتعايش في ضوء ما تضمنته الآيات (محل الدراسة) من مشتركات:

في ضوء الإطار النظري للدراسة الحالية، وبناءً على ما توصلت إليه من نتائج، يمكن عرض المدخل المقترح للتعايش في ضوء ما تضمنته آيات النداءات العامة (محل الدراسة) من مشتركات إنسانية، وذلك في إطار فلسفةٍ، ومنطلقاتٍ، وأهدافٍ، وآلياتِ تنفيذ؛ على النحو التالي:

فلسفة المدخل المقترح:

يستند المدخل المقترح في فلسفته على القرآن الكريم، كتابِ الله (ﷻ) المحكَمِ، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (سورة فصلت)، وكفى به مُستَنطَقًا.

منطلقات المدخل المقترح:

يقوم المدخل المقترح على مجموعة من الركائز والمنطلقات مؤداها:

- أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما أساس حياة المسلم؛ بهما تستقيم وتنضبط، وبدونهما تَميل وتُعوجّ.
- أن الكونَ كلَّه بما فيه من خيرات مُسخَّر لخدمة الإنسان، وهو ما يجعل لكل فرد الحق – بالقوة أو بالفعل – في التنعّم بهذه الخيرات، واستثمارها في صالح الإنسان، بما يعينه على عبادة الله (ﷻ) وعمارة أرضه.
- أن الإنسان العاقل هو من يضع الآخرة نصب عينيه، فيحيا في إطار الهدف الذي من أجله خُلق، ولا يحمّل نفسَه عبءَ ظلمِ الآخرين أو انتقاصِ حقوقِهم.

- حاجة الأفراد والمجتمعات، بل والأمم إلى التعايش المتوازن الذي تُحفظ به الحقوق، وتُصان به الحرمات.
- أن بين البشر قواسم عامة أو خاصة يمكن الاستناد عليها في وضع أطر التفاهم والتعاون فيما بينهم.
- أن نشرَ ثقافة التعايش المتوازن بين البشر، وترجمته عمليًا، وتذليل ما يعترض ذلك من عقبات مسؤوليةُ العالم كلِّه؛ أفرادٍ وجماعات ومؤسسات.
- أن غرس القيم الأخلاقية وتنميتها لازم وضروري في المراحل الأولى لإعداد النشء؛ ما يضع العبء الأكبر في ذلك على عاتق وسائط التربية ومؤسساتها.

أهداف المدخل المقترح:

في إطار منطلقات المدخل المقترح يمكن صياغة أهدافه فيما يلي:

- استنطاق آيات القرآن الكريم، والبحث فيها عما يفيد في وضع أسسٍ للتعايش المتوازن بين البشر.
- التأكيد على حق الإنسان في الاستفادة مما أودع الله (ﷻ) في الكون من خيرات، بما يعينه على عمران الأرض، وتحقيق الهدف الذي من أجله خُلق.
- إبراز أهمية المساءلة والمحاسبة في توجيه أفكار الإنسان وآرائه، وما يتبع ذلك من سلوكيات وممارسات.
- التأكيد على أهمية التعايش المنضبط بين البشر في حفظ حقوقهم وصيانة حرماتهم.
- التنقيب عن المشتركات الإنسانية واعتمادها ضمن أطر التفاهم والتعايش بين البشر.
- بيان دور أفراد المجتمع ومؤسساته في نشر ثقافة التعايش وممارستها عمليًا، ومواجهة ما قد يعيق ذلك من تحديات.
- التركيز على دور وسائط التربية ومؤسساتها في غرس القيم الأخلاقية – ومنها التعايش – وتنميتها في مراحل إعداد النشء، وتوجيهها لصالح كلٍ من الفرد والمجتمع.

آليات تنفيذ المدخل المقترح:

إيمانًا بضرورية مشاركة جميع عناصر المجتمع في بناء وتنمية ثقافة التعايش المنضبط بين أفراده، وفي إطار فلسفة المدخل المقترح وركائزه، وانطلاقًا من أهدافه، يمكن وضع آليات تنفيذه **(كتوصيات إجرائية للدراسة)** في حدود بعض وسائط التربية ومؤسساتها فيما يلي:

(١) الأسرة:

يمكن للأسرة أن تسهم في غرس وتنمية ثقافة التعايش لدى أبنائها عمليًا من خلال ما يلي:

- توفير الجو الملائم للتعايش المنضبط بين أفراد الأسرة، والذي تحدد فيه حقوق كل فرد وواجباته.
- التدخل السريع من رب الأسرة لحل ما قد يحدث بين أفرادها من خلافات، وإدارتها في جو من التفاهم والحوار الملتزم بآدابه.
- ترجمة روح التعايش المنضبط بضوابط الإسلام في التعامل اليومي مع الأقارب أو الجيران، وإن كانوا مخالفين في الفكر أو المعتقد.
- عرض سيرة النبي (ﷺ) وأصحابه الكرام وأخلاقياتهم في التعامل مع الآخرين على الأبناء، وذلك في صورةٍ قصصيةٍ محكيةٍ، أو مطالعةِ بعض كتب التاريخ والسير الموثوقة، واستخراج ما فيها من قيم وعبر.
- توجيه الأبناء إلى ما في العبادات الإسلامية من قيم وأخلاقيات، وخاصة ما يتعلق منها بأسس التعامل مع الآخرين في المجتمع المسلم.
- تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة التي يتشرّبها الأبناء من المجتمع، والتي قد تتعارض مع سماحة الإسلام واعتماده اللين والرفق في التعامل مع الآخرين وإنصافهم.

(٢) المسجد:

يمكن للمسجد أن يسهم في غرس وتنمية ثقافة التعايش عمليًا من خلال ما يلي:

- التعريف بثقافة التعايش من المنظور الإسلامي، وعرض نماذج عملية لترجمة هذه الثقافة في الواقع المعاش من خلال خطب المساجد ودروسها.
- عمل ندوات تثقيفية تتناول قضية التعايش في الإسلام بالشرح والتوضيح، وما يرتبط بها من قضايا؛ مثل آداب الحوار، وأسس الدعوة إلى الله تعالى، وغيرها.
- الاهتمام بالأنشطة الصيفية للأطفال أو حتى الكبار من رواد المساجد، وتعريفهم بمنهج الإسلام في التعامل مع الآخرين، من خلال سيرة النبي (ﷺ) وصحابته الكرام رضوان الله عليهم.
- التزام أئمة المساجد أقصى درجات اللين والرفق في عرض المسائل الخلافية، وتفنيدها بموضوعية وتجرد، دون تعصب لرأي، أو محاولة فرضه على الآخرين بالقوة.
- عمل مسابقات ثقافية تحت إدارة المسجد، أو تقديم بعض الأسئلة بعد الصلوات أو الدروس، تحت عنوان قيم التعامل مع الآخر في الإسلام، وتشجيع المشاركين فيها معنويًا وماديًا.
- تفنيد بعض المصطلحات والقضايا التي قد تتعارض ترجمتها في الواقع مع موقف الإسلام من الآخرين؛ كالتعددية، والحرية الفكرية، وحرية المعتقد، وانتشار الإسلام، وغيرها.
- إعطاء السيرة النبوية مزيد اهتمام في الدروس المخصصة لأئمة المساجد؛ باستنباط القيم الأخلاقية الرفيعة منها، وعدم الاقتصار على مجرد سرد أحداثها ووقائعها.

(٣) المدرسة:

يمكن للمدرسة أن تسهم في غرس وتنمية ثقافة التعايش عمليًا من خلال ما يلي:

- تسليط الضوء على ما يتضمنه المنهج الدراسي من قيم تدعو إلى التعايش المتوازن؛ بمزيد إيضاح، ومتابعة ترجمته عمليًا في سلوكيات المعلمين والمتعلمين داخل المدرسة.
- تخصيص أيام لقيم التعاون وآداب الحوار والتعايش وغيرها ضمن برنامج الإذاعة المدرسية، وحصص النشاط، واستثمار بعض الحصص الاحتياطية في بناء مثل هذه القيم وتعزيزها.

- عمل ندوات توعوية تتناول أسس التعايش في الإسلام، وما يرتبط بها من قيم، يحاضر فيها بعض الأئمة، أو أساتذة الجامعات، أو المعلمون ذوو الخبرة.
- استثمار لوحة الإعلانات داخل المدرسة في التعريف بقيم الإسلام، وتخصيص جزء منها لتعزيز قيم التعايش والحوار.
- انتقاء بعض القصص الإسلامي أو الحكايات الهادفة الداعمة للتعايش المجتمعي وعرضها في المسرح المدرسي، ومطالبة التلاميذ باستخلاص ما تعلموه منها من قيم وأخلاق.
- عمل مسابقة للتلميذ والمعلم والإداري المثالي، ويكون مستوى العلاقة مع الآخرين والتفاعل معهم ضمن بنود التقييم فيها.

(٤) وسائل الإعلام:

يمكن لوسائل الإعلام أن تسهم في غرس وتنمية ثقافة التعايش عمليًا من خلال ما يلي:

- تخصيص برامج دينية تتناول أسس التعايش في الإسلام في ساعات الذروة وعلى القنوات الأكثر متابعة.
- الالتزام بآداب الحوار في الإسلام في البرامج التي تتناول القضايا التي تختلف فيها وجهات النظر، وعرضها بموضوعية تامة؛ وصولًا إلى الحق الذي يلتزم به الجميع.
- عرض الشبهات التي تثار حول الإسلام ومناقشتها وتفنيدها بموضوعية من العلماء المتخصصين.
- الالتزام فعليًا بميثاق الشرف الإعلامي في نقل الأحداث وعرضها بموضوعية، وبيان موقف الإسلام منها.
- تخصيص الدعم الكافي ماديًا ومعنويًا للبرامج والأفلام والمسلسلات التي تلتزم بقيم الإسلام وآدابه، وتذليل العقبات التي تحول دون تحقيق أهدافها المنشودة.
- التركيز على ما بين البشر من قواسم مشتركة وجعلها أساسًا للتعايش المنضبط بين أفراد المجتمع، وذلك في كل ما تتناوله وسائل الإعلام من قضايًا، وما تقدمه من برامج وأخبار وأفلام وغيرها.

- توجيه أنظار الرأي العام لتبني الرفق والموضوعية والتعايش منهجًا للحياة، وأهمية ذلك في مواجهة مخاطر العنف والتعصب والتصارع، وتأثير ذلك على السلم المجتمعي.

مقترحات الدراسة:

في إطار نتائج الدراسة الحالية ومدخلها السابق، واستكمالًا لمسيرتها البحثية تقترح القيام بالبحوث والدراسات التالية:

- تصور مقترح لغرس ثقافة التعايش لدى تلاميذ المرحلة الإعدادية – الثانوية.
- معالم التعايش السلمي في الإسلام وسبل تفعيله في الواقع المعاصر – دراسة تحليلية.
- دور بعض المؤسسات التربوية في غرس وتنمية قيم التعايش لدى أبنائها.
- معوقات نشر ثقافة التعايش وسبل مواجهتها من المنظور الإسلامي.
- دراسة تحليلية لبعض مظاهر التعايش في التراث الإسلامي – وثيقة المدينة نموذجًا.
- مقومات المجتمع المسلم في ضوء آيات نداءات المؤمنين – دراسة تحليلية.

قائمة المراجع

١- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ط٤، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م، ص٦٣٩.

٢- ابن خلدون "ولي الدين عبد الرحمن بن محمد": مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار يعرب، ٢٠٠٤م، ص١٣٨.

٣- ابن عبد البر "أبو عمر يوسف بن عبد الله": جامع بيان العلم وفضله، ج٢، السعودية، دار ابن الجوزي، ١٩٩٤م، ص٥٢١.

٤- ابن عجيبة "أحمد بن محمد بن المهدي": البحر المديد في تفسير الكتاب المجيد، ج٥، تحقيق أحمد عبد الله قرشي، القاهرة، دار حسن عباس زكي، ١٤١٩هـ، ص٧٤٢.

٥- ابن كثير "أبو الفداء إسماعيل بن عمر": تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٠م، ص٩٣١ – ٩٣٢.

٦- ابن ماجة "أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني": سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الديات، باب من قتل معاهدًا، رقم (٢٦٨٦)، القاهرة، مطبعة الحلبي، د ت، ص٨٩٦.

٧- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٥م، ص١٠٨٤.

٨- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، ١٩٤٤م، ص٤٩٠-٤٩١.

٩- أحمد الطيب: منهج القرآن في الحوار مع الآخر، مجلة مركز البحوث والدراسات الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع٤٠، يونيو ٢٠١٣م، ص٧٣١. ص٧٢٨-٧٣٤.

١٠- أحمد شاكر، أنور الباز: مختصر تفسير القرآن العظيم، ط١١، ج٣، المنصورة، دار الوفاء، ٢٠١٤م، ص٤٤٠.

١١- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ص١٥٨٣.

١٢- أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ج١٠، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٩٤٦م، ص٢٦.

١٣- إسماعيل محمد نجيب إسماعيل عبد الله: المصلحة وأثرها في بناء فقه المشترك الإنساني دراسة فقهية مقارنة بالقانون الدولي، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٩م.

١٤- الأصفهاني "أبو نعيم أحمد بن عبد الله": حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٩، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦م، ص١١٨.

١٥- إيمان عبد العليم ساجد محمد: قضايا المشترك الإنساني عند الطاهر بن عاشور من خلال تفسيره (التحرير والتنوير)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ٢٠٢١م.

١٦- بدران بن لحسن: المشترك الإنساني وضرورته للحضارة في فكر الأستاذ عبد السلام ياسين، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، الجزائر، مج١٣، ع١يناير٢٠٢٢م، ص٣٢٢. ص٣١٢- ص٣٤٩.

١٧- البغوي "أبو محمد الحسين بن مسعود": معالم التنزيل، مج٧، تحقيق محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، الرياض، دار طيبة، ١٤١٢هـ، ص٣٤٧ - ٣٤٨.

١٨- جابر عبد الحميد، أحمد خيري: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٩٦م، ص ١٣٦.

١٩- الحبيب العلاني: الإسلام والتعايش السلمي محاضرات سلسلة الملتقيات الفكرية، جامعة الزيتونة – مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، تونس، ٢٠٠٥م، ص٢٥٦. ص٢٥٣- ٢٦٤.

٢٠- حبيب الناملیتي: المشتركات الإنسانية بين رفضها واتخاذها وسيلة من وسائل الدعوة، مجلة البعث الإسلامي، مؤسسة الصحافة والنشر، مج٦٩، ع١، ص٢١. ص٢١ – ٢٣.

٢١- راشد بن حمدان بن زايد المحيشير: آيات النداء الإلهي الموجه للناس في السور المكية دراسة دعوية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٤هـ.

٢٢- راغب السرجاني: المشترك الإنساني نظرة جديدة للتقارب بين الشعوب، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ٢٠١١م، ص٨.

٢٣- ربيعة سحنون: المشترك الإنساني تشريع إلهي، مجلة إيقاظ، الرابطة المحمدية للعلماء، ع١، س١، أبريل ٢٠٢٠م، ص٩٦. ص٩٦- ١٠٠.

٢٤- رشيدة عبد السلام بو خبرة: التعايش السلمي في ضوء القرآن الكريم، مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، مج٤، ع١، يناير ٢٠١٨م، ص٢١٠. ص٢٠٤- ٢٣١.

٢٥- السجستاني "أبو داود سليمان بن الأشعث": سنن أبي داود، ج٤، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم(٣٠٥٢)، بيروت، دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م، ص٦٥٨.

٢٦- سماهر عمر الأسطل، ومحمود خليل أبو دف، القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين وسبل توظيفها في التعليم المدرسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ، الجامعة الإسلامية (غزة)، فلسطين، ٢٠٠٧م.

٢٧- صالح بن محمد صالح الغامدي: آيات النداء الإلهي للنبي محمد (ﷺ) في القرآن الكريم: دراسة تحليلية دعوية، المجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق – جامعة الأزهر، ع٣١، ج٤، ٢٠١٩م، ص٤٠٤١ – ص٤٠٦٨.

٢٨- الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ص ١٦٦.

٢٩- الطبراني "سليمان بن أحمد بن أيوب": المعجم الكبير، ط٢، ج٨، باب العلاء بن الحارث عن القاسم، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت، ص١٨٣.

٣٠- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١، تحقيق بشار عواد وعصام الحرستاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م، ص١٣٤.

٣١- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٢م، ص ٦٨٠.

٣٢- عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش: أدب الحوار في الإسلام، مجلة الدرعية، الرياض، مج١٤، ع٥٣، ٥٤، يونيو ٢٠١٢م، ص٥. ص٣-٢٢.

٣٣- عبد الله بن دجين السهلي: نداء الناس في القرآن الكريم: دراسة عقدية، مجلة جامعة الملك سعود للعلوم التربوية والدراسات الإسلامية، ع٢، مج٢٤، أبريل ٢٠١٢م، ص٥٣٥ – ص٥٦٨.

٣٤- عبد الوهاب عثمان محمد كوكو: دور الحوار في درء النزاع من منظور إسلامي، مجلة دفاتر السياسة والقانون، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ع١٠، يناير ٢٠١٤م، ص١٨١. ص١٧٩- ١٩٥.

٣٥- الغزالي "أبو حامد محمد بن محمد": إحياء علوم الدين، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٥م، ص٥٥.

٣٦- القرطبي "أبو عبد الله محمد بن أحمد": الجامع لأحكام القرآن، ج٥، تحقيق عبد الله التركي ومحمد عرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م، ص١٦٥.

٣٧- محماد بن محمد رفيع: النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف دراسة تأصيلية تحليلية، القاهرة، دار السلام، ٢٠١٢م، ص١٧.

٣٨- محمد تهامي دكير: عرض كتاب: فقه التعايش: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، حقوقهم وواجباتهم، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، مجلة الكلمة، س٢٠، ع ٨٠، صيف ٢٠١٣م، ص٥ – ٦، ص١٦٠- ١٧٢.

٣٩- محمد ثروت محمد عطية: التسامح وأثره على التعايش الديني في إندونيسيا وسنغافورة دراسة مقارنة، رسالة دكتوراة غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث الأسيوية، جامعة الزقازيق، ٢٠٢٢م.

٤٠- محمد عمارة: الإسلام والتعددية الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨م، ص٢٣.

٤١- محمود يوسف الشيخ: مناهج البحث في التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠١٣م، ص ٢٣.

٤٢- مسلم "أبو الحسن بن الحجاج النيسابوري": صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، ح(٢٨٥)، الرياض، دار طيبة، ٢٠٠٦م، ص٢٣٧.

٤٣- وائل بن سلطان بن حمزة الحارثي: التأسيس المقاصدي للمشترك الإنساني، مجلة نماء، مركز نماء للبحوث والدراسات، ع١١، ٢٠٢٠م، ص٦٣. ص٥٨ – ٨٥.

٤٤- وهيبة بوربعين، عبد الله بن معمر: التنمية والتعايش: دراسة سوسيو – تنموية للتعايش الثقافي كقوة محركة للتنمية البشرية، مجلة الحوار الثقافي، مج٥، ع١، جامعة عبد الحميد بن باديس – كلية العلوم الاجتماعية، شتاء ٢٠١٦م، ص٨١. ص ٨١- ٨٩.

****